
نزار قبانى
شاعر المرأة والسياسة
د. نبيل خالد أبو على
هشام مصطفى
مكتبة مدبولى

نزار قبانى

شاعر المرأة والسياسة

د. نبيل خالد أبو على

عميد البحث العلمى - الجامعة الإسلامية

الناشر

مكتبة مدبولى

١٩٩٩

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الأول :

نزار قباني والمرأة

موقف وقضية

أما قبل :

لم يحظ شاعر حديث أو معاصر بالشهرة التي حظي بها نزار قباني ، إذ انتشرت قصائده وذاعت بين الخاصة والعامة (١) ، وقد ارتبط اسم نزار وشهرته بشعره في المرأة وغزله المادي المكشوف الذي ينم عن ولعه بجمال ومفاتن الجسد ، وهذا أمر مبرر بغزارة نتاج نزار وتأكيده المستمر على معاني غزله وخصوصية تجربته ومذهبه في وصف جسد المرأة وملابسها وأدوات زينتها .. حيث كانت المرأة محور شعره الرئيس منذ إصداره لديوانه الأول عام ١٩٤٤ " قالت لي السمراء" لا يشاركها فيه أي موضوع آخر حتى الهم السياسي العام والظروف

---

(١) أقول العامة قاصداً حتى من يجهل القراءة ، وذلك من خلال تلحين وغناء العديد من قصائده الغزلية الرقيقة من كبار الفنانين مثل : محمد عبد الوهاب وأم كلثوم وعبد الحليم حافظ ونجاة وفيروز وكاظم الساهر وماجدة الرومي وغيرهم .

العصيبة التي مرت بها الأمة العربيـــة ، والأحـداث الجسام التي تقلبت على مســـرح السياســة العربـــي والعالمي حتى مطلع العام ١٩٦٧ ، والمتأمل لدواوينه التي صدرت في تلك الحقبة (١) قد لا يجد عناء فـــي استجلاء هذه الحقيقة حتى وهو يمر في ديوانه الثــاني سنة ١٩٤٧ " طفولة نهد " على قصيدته المعنونة بـــ " بلادي " (٢) التي يقول فيها :

حدودنا .. بالياسمين ..

والندى .. محصنة ...

ووردنا مفـــتـــح

---

(١) قالت لي السمراء ، طفولة نهد ، سامبا ، أنت لي ، قصـــائد ، حبيبتي ، الرسم بالكلمات ...... ومثل ذلك يقال في دواوينـه : أشهد أن لا امرأة إلا أنت ، أشعار مجنونة ، قاموس العاشقين، سيبقى الحب سيدي ، أحبك أحبك والبقية تأتي ، كل عام وأنت حبيبي ... وغيرها.

(٢) طفولة نهد ص٣٣ ـــ ٣٦ منشورات نزار قباني بيروت . ط . الثانية عشرة ١٩٧٣ .

كالفِكَرِ الملوّنَهْ ..
وعندنا الصخورُ تهوَى
والدوالي مُدْمِنَهْ
وإن غضبنا .. نزرعِ
الشمس .. سيوفاً مُؤمِنَهْ
بلادُنا كانت .. وكانتْ
بعد هذا الأزمِنَــــهْ

إنها المرة الأولي التي يذكر فيها نزار الوطن، نعم لقد كانت قضايا الوطن تتربع آنذاك على عــــرش السياسة وكانت القلوب العربية تخفق لســــماع أنبــاء استقلال سوريا وخروجها من تحت نــــير الانتــداب الفرنسي ــ عام ١٩٤٦م (١) ــ ، وكان يتوقع مــــن

(١) ففي سنة ١٩٤٥ وقعت بريطانيا اتفاقية الجلاء عــن مصــر ، وفي سنة ١٩٥٣ حصل السودان منــها علــى حــق تقريــر المصير، والعراق سنة ١٩٥٨ ، وفي ســنة ١٩٦٢ حصلــت الجزائر على استقلالها من فرنسا ، وكذلــك نعمــت اليمــن بالحرية في سنة ١٩٦٢ م.

شاب لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره أن يكـــون أكثر حماساً واهتماماً بقضايا الوطن ومع ذلـــك فـــإن ذكر نزار للوطن في هذا النص اليتيم في دواوينه التي أنتجتها تلك المرحلـــة "٤٤ ــ ١٩٥٤" لا يعكـــس أي اهتمام أو خصوصية ولا يشكل خرقاً لناموس القصيدة الغزلية التي اشتهر بها ، بل كأني به قد أخرج هـــــذه القصيدة من رحم قصائده الغزلية حيث لم تتبدل أدواته ومفرداته التي تشكل معجمه الغزلي مثل "الياســـمين ، الندى ، الورد المفتح ، الملونة ، تهوى .. " .

الأمر الذي جعل شهرته مرتبطة في الوجدان العربـــي بهذا اللون الغزلي المكشوف حتى بعد أن بدأت همـــوم السياسة تطل برأسها بين الفينة والأخرى على فـترات متباعدة من خلال قصائده : خـــبز وحشـــيش وقمـــر ١٩٥٤ ، وقصة راشيل شوار زنبرغ ١٩٥٥ ورســالة جندي في جبهة السويس ١٩٥٦ وجميلـــــة بوحـــيرد

١٩٥٧ والحب والبترول ١٩٥٨ ..(١) .

أو عندما بدأت القصيدة السياسية تبشر بتحول نزار بعد نكسة حزيران ١٩٦٧ وتعلن انشغاله بهموم الأمة العربية ومجريات الأحداث الكبيرة التي يشهدها الوطن العربي (٢) :

مالحةٌ في فمنا القصائدْ
مالحةٌ ضفائرُ النساءْ
والليلُ ، والأستارُ ، والمقاعدْ
مالحةٌ أمامَنا الأشياءْ
يا وطني الحزينْ
حولتني بلحظةٍ
من شاعرٍ يكتبُ شعرَ الحُبِّ والحنينْ
لشاعرٍ يكتُبُ بالسكِّينْ

---

(١) الأعمال السياسية الكاملة ، منشورات نزار قباني ، الطبعة الرابعة ، بيروت١٩٨٦، ١٣ ــ ٦٨ .

(٢) قصيدة : هوامش على دفتر النكسة ، الأعمال السياسية ٧١ــ٩٨

إذا خسرنا الحرب ، لا غرابه

لأننا ندخلها

بكل ما يملكه الشرقي من مواهب الخطابه

بالعنتريات التي ما قتلت ذبابه

لأننا ندخلها

بمنطق الطبلة والربابه ..

حيث بدأت القصيدة السياسية تجد مكانها بين قصائد شعر نزار الغزلية ، وبدأت القلوب العربية تخفق لسماع شعره السياسي كخفقانها لسماع شعره الغزلي...(١) .

---

(١) تعد قصيدة " هوامش " بداية الاهتمام الحقيقي بالجانب الوطني والسياسي في شعر نزار عند العديد من النقاد . انظر مثلا :

- شاكر النابلسي ، الضوء واللعبة ، الطبعة الأولى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٦ ، ص٩٦ .
- ماهر حسن فهمي ، نزار قباني وعمر بن أبي ربيعة ــ دراسة في فن الموازنة ، طبعة دار نهضة مصر ، القاهرة ١٩٧١.

ومع ذلك فإن الملفت للنظر حقاً هو إصرار نزار على وضع جسد المرأة وأشيائها في موقع الصدارة ، وبسط قضية تحرير ذلك الجسد كقضية قومية ملحة تتقدم في وجدانه واهتمامه على قضايا الوطن وهمومه السياسية . لقد تجلى ذلك في شعر نزار منذ ميلاده كشاعر ؛ واستمرت المرأة متفردة لا ينازعها أي موضوع آخر في العشرة دواوين الأولى تقريباً (١)، وبقيت في موقع الصدارة بعد ذلك حتى حينما بدأت القصيدة السياسية وهموم الوطن تتسلل على استحياء لتبحث لها عن مكان في شعره ؛ وحتى حينما استطاعت بعد ذلك أن تبسط نفوذها وتحتل مرتبة الصدارة في شعره فإنها لم تستطع أن تلغي اهتمام نزار بالمرأة وجسدها .

---

(١) اقترنت بداية الشعر السياسي عند نزار بنكسة عام ٦٧ وقصيدة " هوامش على دفتر النكسة " ، وما سبقها لم يكن سوى ومضات بدون انتماء أو دلالة .

وإننا في هذا البحث إذ ننطلق من هذه الملاحظات فإن هدفنا هو استجلاء أسباب هيمنة المرأة على وجدانه وشعره ، ثم الوقوف على أسباب تلك الوجهة الإباحية في شعره .

هل هناك معاناة حقيقية دفعته في هذا الاتجاه ؟ وهل هو فعلاً مهتم بشئون المرأة وقضاياها ؟

لعل في دراسة حياة نزار الخاصة ما يساعد على استجلاء هذا الأمر ويمهد للإجابة على العديد من التساؤلات حول شعر نزار الإباحي في المرأة .

مولده ونشأته :

ولد نزار قباني في ٢١ مارس عام ١٩٢٣ في حي مئذنة الشحم بدمشق لأسرة ميسورة الحال ، كان أبوه توفيق القباني صاحب محل لصناعة الحلويات وقد شارك في مقاومة الانتداب الفرنسي على بلاده ،

وكان نزار الثاني بين أربعة صبيان وبنتين " معتز ورشيد وصباح وهيفاء ووصال " ، انتحرت أخته وصال سنة ١٩٣٨م لأنها لم تستطع أن تتزوج من حبيبها وقد ترك موتها جرحاً غائراً في نفس نزار(١)، تلقى دراسته الابتدائية والثانوية في الكلية العلمية الوطنية بدمشق التي كانت تتبع نهجاً حديثاً في التدريس تجمع فيه بين الثقافتين : العربية التراثية والأوربية الحديثة ، ثم التحق بكلية الحقوق في الجامعة السورية وعمل فور تخرجه عام ١٩٤٥ في السلك الدبلوماسي والتحق بأول بعثة سياسية للقاهرة وقبل أن يتركها عام ١٩٤٨م أصدر ديوانه الثاني "طفولة نهد"، ثم انتقل إلى تركيا وفي العام ١٩٥٢ انتقل إلى لندن وهنالك أتقن الإنجليزية حيث بقي سفيرا لسوريا في لندن حتى العام ١٩٥٥... وإجمالاً فقد أتاح له عمله في السلك السياسي رؤية أوروبا كلها

---

(١) انظر : الضوء واللعبة ، ص ١٠٣

تقريباً : فرنسا وألمانيا وأسبانيا والسويد والدانمرك .. وإتقان الفرنسية والأسبانية إلى جانب الإنجليزية ، والاطلاع على ثقافة تلك البلدان وحضارتها وآدابها . استقال من عمله بوزارة الخارجية عام ١٩٦٦ وأسس دارا للنشر في بيروت ، وقد برر نزار استقالته من وزارة الخارجية بقوله : " لأتفرغ نهائياً للشعر لأنني كنت أشعر بازدواجية مرعبة في داخلي تمنعني من ممارسة حريتي بشكل مطلق لذلك تفرغت للشعر وحده"(١). تزوج أول مرة عام ١٩٤٦ من المواطنة السورية زهرة اقبيق وأنجبا هدباء وتوفيق ، وقد توفي توفيق عن سبعة عشر عاما أثناء إجراء عملية جراحية في القلب في لندن أما هدباء فهي متزوجة ومقيمة في الخليج، وبعد فشل زواجه الأول تزوج عام ١٩٧٠ من سيدة عراقية " بلقيس الراوي " وأنجب منها عمر وزينب ، وقد توفيت بلقيس في حادث

(١) نزار قباني وعمر بن أبي ربيعة ، ص٤٥.

انفجار السفارة العراقية في بيروت عام ١٩٨١م خلال الحرب الأهلية اللبنانية ...

وقد تحدث نزار عن ظروف نشأته وعن والده توفيق القباني برضـا واعتزاز حيث قـال : " شارك والدي مشاركة فعالة بوقته وماله في أعمال المقاومـة ضد الانتداب الفرنسي على سوريـة ، وكانت دارنـا في الثلاثينات مركزا يمارس فيه السياسيون السوريون نشاطهم الثوري ، ويعقدون اجتماعاتهم ، ويرسـمون خطط المقاومة ، ويخطبون في الناس المجتمعين فـي ساحة منزلنا الفسيحة ، وباختصار كان بيتنـا سـاحة شعبية للنضال، وكانت طفولتي الأولى في هذا المنـاخ الثوري... بيتنا كان من البيوت الدمشـقية الوارفـة الخضرة ، الدافقة الماء ، وعلى هذا السرير الأخضـر المغزول برائحة الورد الدمشقي وغنـاء العصـافير نطقت كلماتي الأولى .." (١). أما أمه فيأتي ذكرهـا

---

(١) السابق ، ص٤٥.

لماماً حينما يتحدث عن طفولته المدللة حيث يقـــول : "أما أمي فكانت ينبوع عاطفة يعطي بغير حســــاب ، كانت تعتبرني ولدها المفضل ، وتخصّني دون ســـائر اخوتي بالطيّبات ، وتلبي مطالب الطفولية بلا شـكوى ولا تذمر" (١) ، أو في ثنايا الحديث عـــن والـــده ، كقوله : "لم يكن أبي متديّناً بالمعنى الكلاسيكي للكلمة. كان يصوم خوفاً من أمي ، ويصلي الجمعة في مسجد الحيّ ــ في بعض المناسبات ــ خوفاً علـــى ســمعته الشعبية"(٢). وكـــذلك في معرض المفاضلـــة بينـــها وبين أبيه كقوله : "بين تفكير أبي الثائر ، وتفكير أمي السفلي ، نشأت أنا على أرض من النــــار والمـــاء . كانت أمي ماءً وأبي ناراً ، وكنت بطبيعـــة تركيبـــي

---

(١) نزار قباني ، قصتي مع الشعر ، منشـــورات نـــزار قبـــاني ، بيروت ١٩٨٢ ، ص٧٣

(٢) قصتي مع الشعر ، ص٧٣

أفضل نار أبي على ماء أمي ..(١).

ولعلّ ميل نزار إلى أبيه وتفضيله إياه على أمه منوط بالصفات المشتركة التي تجمع بينهما ؛ سواء الجسمية أو النفسية والسلوكية ، فعلى الصعيد الجسماني فإن نزار مزهو بشبهه أباه " بالإضافة إلى شبهي الكبير له بالملامح الخارجية ، فقد كان شبهي له بالملامح النفسية أكبر ، وإذا كان كل طفل يبحث خلال مرحلة طفولته عن فارس ، ونموذج ، وبطل ، .. فقد كان أبي فارسي وبطلي.."(٢) ، وعلى الصعيد النفسي والسلوكي فإن نزار يزدري التدين ويستهجن ممارسات أمه وطقوسها التعبدية، من ذلك ما نراه في مثل قوله : " أما على الصعيد الفكري فلم يكن بيني وبين أمي نقاط التقاء . فلقد كانت مشغولة في

---

(١) السابق ، ص ٧٥ ، كان ينبغي على نزار أن يقول : كانت أمي ماءً وكان أبي ناراً ..

(٢) السابق ، ص٧٦

عبادتها، وصومها ، وسجادة صلاتها ، تسـعى إلـى المقابر في المواسم ، وتقدم النذور للأولياء ، وتطبـخ الحبوب في عاشوراء ، وتمتنع عن زيارة المرضـى يوم الأربعـاء ، وعن الغسيـل يوم الاثنين .. "(١) ، وفي المقابل يتحدث بأريحية منقطعة النظير عمّا ورث من صفات أسرة أبيه بشكل عام وعن أبيـه بشـكل خاص ، من ذلك قوله : " ..في الحادية عشـرة مـن عمرنا نصبح عاشقين ، وفي الثانية عشرة نسـأم .. وفي الثالثة عشرة نعشق من جديد .. وفـي الرابعـة عشرة نسـأم من جديد .. وفي الخامسة عشـرة يصبح الطفل في أسرتنا شيخاً .. وصاحب طريقة في العشق . جدي كان هكذا .. وأبي كان هكذا .. كلنـا نعاني هذه الحساسية المفرطة أمام أشياء الجمـال .. كان أبي إذا مر به قـوام امـرأة فارعـة ينتفـض

---

(١) السابق ، ص ٧٣،٧٤

كالعصفور وينكسر كلوح الزجاج..(١). ومن ذلك أيضاً ما نراه في تبرير انتحار أخته وصال ، كقوله : " أنا من أسرة تمتهن العشق (٢).. كل أفراد الأسرة يحبون حتى الذبح .. وفي تاريخ الأسرة حادثة استشهاد مثيرة سببها العشق .. الشهيدة هي أختي الكبرى وصال ، قتلت نفسها بكل بساطة وبشاعرية منقطعة النظير لأنها لم تستطع أن تتزوج حبيبها .. صورة أختي وهي تموت من أجل الحب محفورة في لحمي .." (٣)

إن الذي يتأمل أقوال نزار هذه يدرك منذ

---

(١) السابق ، ص٧٠،٧٢

(٢) قوله : أسرة تمتهن العشق يشير إلى جميع أفراد الأسرة ؛ الأب والأم والأبناء والبنات ، وإن كان نزار قد استثنى الأم حينما وصف تدينها الذي اختلطت فيه الشعوذة بطقوس العبادة، فإنه لم يستثن الأخوات ، فكما أن للأخوة عشيقات فإنه للأخوات عشاق ..

(٣) السابق ، ص٧٤،٧٥

الوهلة الأولى أنه واقع تحت تأثير ظرف نفسي أدخله تحت أسلوب التداعي الحـر Free-association دون أن يشعر ، ودون الحاجة إلى معالج كما هو معروف في العلاج النفسي ، هذا الأسلوب الذي يُعرّفه علمـاء النفس بقولهم : "هو إطلاق العنان لأفكـار المريـض وخواطره واتجاهاته وصراعاته ورغباته واحساسـاته تتداعى وتسترسل حرة مترابطة تلقائيـاً .. ويهدف التداعي الحر إلى الكشف عن المواد المكبوتـة في اللاشعور Unconsciousness واستدراجها إلى حيز الشعور Conscious ، وفي التداعي الحر يكون المعالج يقظاً لملاحظة انفعالات المريض وحركاته العصبية ، ولما يتورط فيه من فلتات اللسان ــ كلمات الحق التي ترد على اللسان بدون قصد أثناء الكلام ومثلها زلات القلم ــ.."(١)

---

(١) حامد زهران ، الصحة النفسية والعلاج النفسي ، ط. الثانية ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٧٧، ص٢٠٤،٢٠٥

إذن فقد نشأ نزار نشأة ناعمة مترفة وحاز بعد تخرجه على وظيفة مرموقة حافظ من خلالها على أسباب النعيم التي تهيأت له في منزل والده ، هذا بالإضافة إلى ما أتاحته وظيفته من تنقل بين البلدان الأجنبية و العربية ، وعلى صعيد نوائب الدهر فقد رأينا الملمات التي زلزلت كيان نزار ، سواء انتحار أخته أو وفاة ابنه أو مقتل زوجته (١)، وسنرى حتماً انعكاس ظروف نشأته وكل هذه النائبات التي ألمت به على صفحات شعره وأثرها في تشكيل مذهبه الفني .

---

(١) راجع في ترجمته : قصتي مع الشعر ، ص٢٧ . نزار قباني وعمر بن أبي ربيعة ، ص ٤٤ وما بعدها . الضوء واللعبة ، ص ٩٨ وما بعدها .

ـ توفي نزار يوم الخميس الموافق ١٩٩٨/٤/٣٠م في لندن ونقل جثمانه حسب وصيته ليدفن في مقبرة الأهل في دمشق ، لأن دمشق كما يقول في وصيته : " هي الرحم الذي علمني الشعر =وعلمني الإبداع وأهداني أبجدية الياسمين ... وهكذا يعود الطائر إلى بيته والطفل إلى صدر أمه " . صحيفة القدس ، الصفحة ١٢ ، الجمعة ١٩٩٨/٥/١م.

نزار وشعره في المرأة :

قال نزار :" لا أعرف لماذا اخترت المرأة والغزل موضوعاً أساسياً لفني ، هناك أنواع من الضغوط الداخلية لا تعرف تفسيراً لها " (١)

فاق اهتمام نزار قباني بالمرأة جميع شعراء عصره ، واختلفت طريقته في ترجمة هذا الاهتمام عن غيره من الشعراء حتى بدت مستهجنة غير مألوفة في كثير من الأحيان (٢) .

ولعل تفرغ نزار لشعر الغزل الصريح وولعه بوصف المرأة ومفاتن جسدها وأدوات زينتها حقبة طويلة من حياته في وقت كان يفترض فيه أن تخالط

---

(١) نزار قباني وعمر بن أبي ربيعة ، ص٤٧ .

(٢) راجع : - سامي الكيالي ، الأدب العربي المعاصر في سورية، ط ٢ دار المعارف ، ٤٤٢

- الضوء واللعبة ، ص١١٤ .

هموم السياسة وشجون الوطن شعره الغزلـــي ؛ هــو الذي حفزنا على البحث في ظروف نشأته والعوامــل المفترض تأثيرها في تكوين شخصيته وهويته الفنيــة .. وقد تبين لنا فيما سبق أن هنالك العديد من العوامل التي تصلح منفردة ومجتمعة لتــبرير اهتمـــام نــزار بالمرأة ، وإماطة اللثام عن أسباب اتجاهه إلـــى هــذا المذهب في الغزل .

عوامل اهتمام نزار بالمرأة :

يرى د. ماهر حسن فهمي أن القصيدة تعبــير مباشر عن قيم فكرية واجتماعية ، وهي فـــي نفــس الوقت تنفيس عن أزمة نفسية يحســها الفنــان وهــو يحاول التكيف مع المجتمع (١)، ومثل هذا الرأي نراه

---

(١) نزار قباني وعمر بن أبي ربيعة ،ص ٥٧

عند الدكتور يونج حينما يجعل الإسقاط هدف المبدع ، وأن لاشعوره الجمعي المتوارث منذ آلاف السنين يسقط على الواقع (١)، ويقرر نزار قباني أن شعره تاريخ للعلاقات العاطفية في بلاده ، وأنه يتعرض لألوف الضغوط التاريخية والوراثية والجنسية التي يتعرض لها الإنسان في بلاده ، وأنه بفعل السفر تخلص شيئا فشيئا من التركة الجنسية الثقيلة التي كان يحملها (٢)، ثم يقرر أن الإبداع نسيج متواصل لا يمكن أن ينقطع عن التراث والخبرات السابقة كالوشم العميق لا تمحى ولا تنسى(٣).

فنزار إذن لا يخرج عن حدود رؤية علماء النفس التحليليين للإبداع ، وهو بطريقة واعية يقر

---

(١) انظر : مصطفى سويف ، الأسس النفسية للإبداع الفني ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة، ١٩٥ – ٢٠٦

(٢) منير العكش ، أسئلة الشعر ، ط. المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٩ ، ص١٧٩

(٣) قصتي مع الشعر ، ص١٨٩

بأثر العديد من العوامل في توجهه لشعر المرأة وتكوين مذهبه الشعري في غزله .

وأول هذه العوامل نراه في نشأة نزار المدللة في أسرة ميسورة الحال تمتلك بيتاً واسعاً يشبه الجنة بنوافيرها وزهورها وأغاريد طيورها ، " هل تعرفون معنى أن يسكن الإنسان في قارورة عطر ؟ بيتنا كان تلك القارورة ... بوابة من الخشب تنفتح ويبدأ الإسراء على الأخضر والأحمر ، والليلكي ، وتبدأ سيمفونية الضوء والظل والرخام .. شجرة النارنج تحتضن ثمرها ، والدالية حامل، والياسمينة ولدت ألف قمر أبيض وعلقتهم على قضبان النوافذ .. وأسراب السنونو لا تصطاف إلا عندنا .. أُسود الرخام حول البركة الوسطى تملأ فمها بالماء .. وتنفخه .. وتستمر اللعبة ليلاً نهاراً .. لا النوافير تتعب .. ولا ماء دمشق ينتهي ." (١) .

---

(١) نزار قباني ، قصتي مع الشعر ، ص ٣١ وما بعدها .

ثم ما هيأته له حالة أبيه المادية من الالتحاق بالكلية العلمية الوطنية ، وإطلاله المبكر على الثقافة الأوربية عامة والفرنسية بشكل خاص ؛ في تلك المدرسة التي كانت تتبع منهجاً حديثاً في التربية والتعليم ؛ التي أتاحت له فرصة الاختلاط بالمرأة واكتشاف عالمها الخاص "مدرستي الأولى ، هي الكلية العلمية الوطنية في دمشق ، دخلت إليها في السابعة من عمري ، وخرجت في الثامنة عشرة أحمل شهادة البكالوريا الأولى القسم الأدبي .. (١) " ، وكما كان لتلك المدرسة أثرها البالغ في تشكيل فكر ووجدان نزار كذلك في أجوائها تفتق الشعر على لسانه ، في جو من أجواء البهجة والسرور التي كانت توفرها المدرسة للترفيه عن طلابها ، "حين كانت طيور النورس تلحس الزبد الأبيض عن أقدام السفينة

والصواب أن يقول : تملأ أفواهها بالماء.

(١) السابق ، ص٤٠ .

المبحرة من بيروت إلى إيطاليا ، فـي صيـف عـام ١٩٣٩ ، وفيما كان رفاق الرحلـة مـن الطـلاب والطالبات ، يضحكون، ويتمشون ، ويأخذون الصـور التذكارية على ظهر السفينة ، كنت أقف وحدي فـي مقدمتها ، أدمدم الكلمة الأولى من أول بيـت شـعر نظمته في حياتي.."(١) .

وثاني هذه العوامل هو عامل الوراثـة ، مـا ورثه عن أبيه وعائلته من السمات النفسية والسلوكية، لعل أهم ما يلاحظه القارئ لسيرة نزار الذاتية حرصه الشديد على تأكيد شبهه الجسماني والنفسي بأبيه ، هذا الأب الذي قال في وصفه بـاعتزاز : " تمـيز أبـي بحساسية نادرة وبحبه للشعر ولكل ما هـو جميـل ، ورث الحس الفني المرهف بدوره عن عمه أبي خليـل القباني الشاعر والمؤلف والملحن والممثل وبـاذر أول

---

(١) السابق ، ص٦٢ .

بذرة في نهضة المسرح المصري.."(١).

وهو الأب الذي ورث عنه نزار حساسيته المفرطـــة أمام أشياء الجمال وعدم الاستقرار على حالـــة مـــن حالات العشق والهيام ، " .. جدي كان هكذا .. وأبـــي كان هكذا كلنا يعاني من هـــذه الحساسـية المفرطـة أمـــام أشياء الجمال كان أبي إذا مر به قـــوام امـــرأة فارعة ، ينتفض كالعصفور، وينكســـر كلـــوح مـــن الزجاج.."(٢).

أما ثالث هذه العوامل وفي ظني أكثرها تـأثيراً في توجه نزار هذه الوجهة في الغزل المـــادي فـــهو حادثة انتحار أخته وصال على حد قول نـــزار ، وإن كنت أرجح قتلها على الانتحار كما سيتضح من بعض القرائن التي سنناقشها بعد قليل .

---

(١) سامي الكيالي ، الأدب العربـــي المعـــاصر فـــي ســـورية ، ص٤٤١..

(٢) قصتي مع الشعر ص٧٠ وما بعدها .

هذه الحادثة التي صورها نزار وبين أثرها في وجدانه ومذهبه الشعري بقوله : " الشهيدة هي أختي الكبرى وصال ، قتلت نفسها بكل بساطة وبشاعرية منقطعة النظير .. لأنها لم تستطع أن تتزوج حبيبها .. صورة أختي وهي تموت محفورة في لحمي ، لا أزال أذكر وجهها الملائكي، وقسماتها النورانية ، وابتسامتها الجميلة وهي تموت .. حين مشيت في جنازة أختي .. وأنا في الخامسة عشرة ، كان الحب يمشي إلى جانبي ، و يشد على ذراعي ويبكي .. هل كان موت أختي في سبيل الحب أحد العوامل النفسية التي جعلتني أتوفر لشعر الحب بكل طاقاتي ، وأهبه أجمل كلماتي ؟ هل كانت كتاباتي عن الحب ، تعويضاً لما حُرِمَت منه أختي ، وانتقاماً لها من مجتمع يرفض الحب ، ويطارده بالفؤوس والبنادق ؟ " (١) .

تعكس شخصية نزار بوضوح أثر العوامل

---

(١) السابق ، ص٧١ ، ٧٢ .

التي ذكرها علماء النفـــس كمحـــددات للشـــخصية ؛ الوراثية والبيئية والثقافية والاجتماعية وعوامل الحالة الخاصة . فلكل عامل من هذه العوامل أثره الواضـــح في تكوين شخصية نزار وتشكيل سلوكها ، فـــالعوامل أو المحددات الوراثية Genetic Factors "وهي السمات التي يكتسبها الفرد عن طريق العملية الجينية ، وتتمثل فـــي التكويـــن الجســـــماني Somatic Structure والانعكاسات اللاإرادية Reflexes والدوافع الداخليـــة Innate Drives والذكـــاء Intelligence والمزاجيـــة أو الحساسية Temperament"(١) تحدد طبيعة اســـتجابة الفرد للمؤثر واندفاعه ، وكذلك قدرته علـــى التعلـــم وتركيبته العاطفية .

كما تؤثر المحددات البيئيـــة Environmental Factors

---

(١) كامل محمد المغربي ، مفاهيم وأسس سلوك الفرد والجماعـــة في التنظيم ، ط.الثانية ، دار الفكر للنشر والتوزيـــع ، عمـــان ١٩٩٤، ص١١٠

في صياغة شخصية الفرد وتحديد سلوكه ، وذلك من خلال السمات التي يكتسبها نتيجة احتكاكه وتفاعله مع أفراد المجتمع والحضارة والثقافة السائدة في مجتمعه .

وكذلك للمحددات الثقافية والاجتماعية Cultural & Social Factors بالغ التأثير في سلوك الفرد ، إذ تؤثر مكونات الثقافة من معتقدات وتقاليد ولغة وفن ومهارات وقانون ودين وعادات وتقاليد .. تأثيراً واضحاً في شخصية الفرد وسلوكه ، كما تؤثر العملية الاجتماعية ـ العائلة والانتماء الديني والأصل العرقي والطبقة الاجتماعية وزملاء الدراسة ورفاق العمل ـ في تكوين عواطف ومشاعر الفرد وتنمية سلوكه وتحديد طريقته في إشباع حاجاته الوجدانية والفيسيولوجية .

أما عوامل الحالة Situational Factors من الأحداث والوقائع التي تظهر بصورة غير متوقعة ـ

فجائية ــ فهي أيضاً ذات أثر بالغ في تحديد شخصية الفرد ومستقبله (١).

إن لكل عامل من هذه العوامل أثره الذي لا ينكر في تكوين شخصية نزار الفنية وتحديد مذهبه الشعري ، كذلك قد يكون لبعض العوامل العامة أثرها في ذلك ، فالحديث عن العصر الذي عاش فيه نزار وسماته المادية وهيمنة الجوانب الحسية في تصوير الجمال ، خاصة جمال المرأة ، على الجوانب المعنوية قد يبرر اتجاه نزار إلى الغزل الصريح ولكنه قد لا يبرر له بلوغ تلك الدرجة التي وصلها من الفحش (٢) .

كذلك نرى أن أثر البيئة التي عاش فيها نزار،

---

(١) السابق ، ص ١١٠- ١١٢. وانظر أيضاً : إبراهيم الغمري ، السلوك الإنساني والإدارة الحديثة ، ط.دار الجامعات المصرية بالإسكندرية ، دون تاريخ ، ص ١٩-٢٠.

(٢) السعيد الورقي ، لغة الشعر العربي الحديث ، ط.الثانية ، دار المعارف بمصر١٩٨٣ ، ص٣٨٤.

سواء البيت أو المدرسة ، أو تنقله في البلدان العربية والأجنبية بحكم وظيفته ، واطلاعه على صنوف من الحضارات والنساء .. ، ثم أثر العامل الوراثي وما أكسبه من جرأة في التعبير عن شهوة الحب وعشق النساء .. قد يكونا وراء توجه نزار إلى شعر الحب والغزل . أما توجهه تلك الوجهة التي جعلته متفرداً في شعره الجنسي في البداية (١) ، ثم في شعره الفاضح الذي تناول فيه جسد المرأة وأشياءها بعد ذلك قد لا يبرره إلا الوقوف على أثر العامل الثالث ، انتحار أخته وصال .

وقد يكون من المجدي أولاً أن نستجلي حقيقة الأمر ، أهو قتل ؟ أم انتحار ؟

أزعم أن نزار قد عمد إلى تجميل سيرته الذاتية والحديث عن أفراد أسرته بالصورة التي يرتضيها ، وبادر بكتابة ذلك قبل أن يشرع الدارسون

---

(١) راجع ، نزار قباني وعمر بن أبي ربيعة ص١٩٤ .

والنقاد في نبش الأسرار ونشر المطوي ، ومع ذلك فإن الدارس قد لا يجد عناءً في الوصول إلى بعض القرائن التي تؤيد وجهة نظره في مقتل أخته ومن ثم تبرر سخط نزار على ذلك المجتمع الذي يتحمل دم تلك الأخت ، والطريقة التي اختارها للانتقام من ذلك المجتمع .

ومن هذه القرائن ما نراه في وصفه لأفراد أسرته: " كل أفراد الأسرة يحبون حتى الذبح " (١) ، وقوله في تبرير كتاباته عن الحب واستذكار موت أخته : " .. وانتقاماً لها من مجتمع يرفض الحب ، ويطارده بالفؤوس والبنادق .."(٢) ، وقوله بطريقة التعميم : " نحن الرجال لا نعطي شيئاً ، نأكل البيضة وقشرتها ، ندعي التحضر ونحن أكثر بدائية من ضباع سيبريا ، ندرس في جامعات أوربا ونعود أكثر

---

(١) قصتي مع الشعر ، ٧٣

(٢) السابق ، ١٧

توحشا من "الماو ماو" ، نقدم الورد لعشيقاتنا وننشـــر رقبة شقيقاتنا بالمنشار .. "(١)، وقوله : " فالرجولـــة كما يفهمها مجتمع الرجال لدينا ، هي القائمـــة علـــى الكسر ، والقمع ، وإلغاء إرادة الأنثى .."(٢)، ويقول: " لقد حذفت جسد المرأة من قائمة الخراف التي تنتظر الذبح .."(٣)، وغير ذلك من أقوال نزار المتناثرة فـي كتبه ولقاءاته وندواته ودواوينه الشعرية، هذه الأقـوال التي تكاد أن تكون ترجمة لموقف نفســـي عصيـب عايشه نزار في مرحلة مبكرة من عمره ، حين شـاهد الطريقة التي قتلت بها أخته فاختزنت فـــي وجدانـه ولاوعيه ــ العقل الباطن ــ أزمة نفسية تطفو رغـــم رقابة العقل الواعي على سطح كلماته في مناســـبات عديدة ، وإلا فما هو مبرر إلحاحه على أقواله السابقة

---

(١) نزار قباني وعمر بن أبي ربيعة ، ٦٥

(٢) المرأة في شعري وفي حياتي ، منشورات نزار قباني ، بيروت ١٩٨١ ، ٢٥

(٣) السابق ، ١١

في غير موضع ؟ وكيف نفهم قوله ـ مثلاً ـ : "وننشر رقبة شقيقاتنا بالمنشار " ، إنها سبقة لسان لم ينتبه لها عقله الواعي (١) ، ومع ذلك فقد كان من الصواب أن يقول : وننشر رقاب شقيقاتنا ، وليس رقبة على سبيل الإفراد والخصوصية. ثم أي نوع من الحب الذي يرفضه المجتمع العربي ويطارده بالفؤوس والبنادق ؟! ثم ما هي دلالة قوله : " يصنع تاج الشرف الرفيع .. من جماجم النساء " وقوله : "يبايع الرجال أنبياء .. ويطمر النساء في التراب " وغيرها من التراكيب ذات الدلالة الإسقاطية في قصيدتيه : رسالة إلى رجل ما، وحبلي(٢)،ألا يعد هذا من قبيل الإسقاط ، أو كما يسميه علماء النفس

---

(١) راجع في مفهوم اللاوعي وقوته : د. أي . شنايدر ، التحليل النفسي والفن ، ترجمة يوسف عبد المسيح ثروة ، ط. دار الحرية للطباعة ، بغداد ١٩٨٤ ، ص ١٠٩ وما بعدها .

(٢) نزار قباني ، أحلى قصائدي ، منشورات نزار قباني ، بيروت ١٩٧١، ص٦٤ ، ٧٥

التحليليون تفلت اللاوعي المكبوت من عقال هيمنة العقل الواعي ..(١).

ويبقى بعد ذلك قول نزار : " الشهيدة هي أختي الكبرى وصال ، قتلت نفسها بكل بساطة وشاعرية منقطعة النظير لأنها لم تستطع أن تتزوج حبيبها .."(٢) ليثير العديد من الأسئلة : هل هي فعلاً التي قتلت نفسها ؟ ولماذا؟ ، ولماذا لم تستطع أن تتزوج حبيبها ؟

أما السؤال الأول فقد بينا موقفنا منه فيما مضى ويبقى حسم الرأي فيه من خلال هذه المقولة مرهوناً بالوقوف على أسباب عدم تمكنها من الزواج بمن تحب . وفي ظني إن هذا الأمر لا يحتمل أكثر من فرضيتين ، الأولى التي يلمح لها نزار في قوله :

---

(١) راجع : التحليل النفسي والفن ، حديث غوته عن الاندفاع المبدع والهيمنة الخلاقة ص١١٤، وحديث المؤلف عن اللاوعي المكبوت ص١٤٠-١٤١.

(٢) قصتي مع الشعر ، ٧٤

" هل كانت كتاباتي عن الحب تعويضاً لما حرمت منه أختي ، وانتقاماً لها من مجتمع يرفض الحب ويطارده بالفؤوس والبنادق "(١) وهي وقوف الأسرة في وجه زواجها ممن أحبت ، والثانية أن المحبوب هو الذي فرّ من وجه حبيبته بعد أن مناها بالزواج .

أما موقف الأسرة فقد تبيناه من خلال حديث نزار عنها ، حيث قدم لنا أسرة متفتحة بمفهوم الحضارة الغربية، تقدر الحب وتحترم المشاعر ، أسرة يصبح فيها الطفل في الخامسة عشرة شيخاً وصاحب طريقة في العشق على حد قوله ، وبالتالي فإنه من غير المستساغ أن تكون هذه الأسرة هي التي وقفت في وجه مشاعر ابنتها ورغبتها الشريفة في الزواج بمن تحب، والأدلة على ذلك عديدة مر معظمها فيما أوردناه من حديث نزار عن أسرته وصفاتها .. وفي إطار مناقشة الفرضية الثانية

---

(١) نفسه ، ٧٢

نـــــرى احتمالية هرب الحبيب بعد أن مارس معـــها حبه قائمة، ونرى في الحالتين أنها هي المسئولة عــن وصول علاقتها بمن تحب إلى هذا الشكل المرفــوض الذي تحاربه الأسرة والمجتمع ويفر منـــه الحبيـــب . وبالتالي فإنه من غير المبرر أن يقرر نزار أن شعره في المرأة هو انتقام من المجتمع الذي يعد من وجهـــة نظره مسئولاً عن مقتل أخته أو حتى انتحارهـــا لــو سلمنا جدلاً بما ذهب إليه نزار .

ولكن قد نرى تبريراً لذلك في نظرية التحليــل النفسي Psychoanalytic Theory التي يرى أتباعها من تلاميـــذ ســـيغموند فرويــــد Sigmond Freud أن الأزمـــــات تتـــرك صراعـــــــاً مخزونـــاً Repressed Conflict في العقل البـــاطن ، وأن هـــذا الصراع يبرز أحياناً بطريقة لاشعورية في زلة لســان أو سقطة كتابة أو تظهر في الأحلام على شكل رموز تفسر ذلك الصراع أو تلك الأزمة ، وذلك في لحظـــة

معينة بعد عدد من الإجهادات الاجتماعيـــة والنفســية Psychosocial Stresses التي تتسبب فيـــها الحــوادث المؤلمة (١).

وما حدث لنزار في رأيي هو أن مقتل أختـــه الكبرى وصال ــ أو حتى انتحارها كما يقول نزار ــ قد ترك عنده صراعاً نفسياً مختزناً ، وأن ما أصابـــه من حوادث مؤلمة بعد ذلــك أدت إلـــى تفجــر هــذا المخزون وخروجه على شكل تعبيرات لفظية جـــاءت في ثنايا شعره ونثره بطريقة تغري بالاستماع إليـــها ، وبالتالي يجد المبرر لتقديم المزيد تعبيراً عما بداخله ، وهذا الشكل من أشكال التعبير يعده علماء النفس شكلاً من أشكال دفاع الأنا Defense Mechanism ويســمونه

---

(١) انظر : ــ عبد الستار إبراهيم ، العـــلاج النفســي الســلوكي المعرفي الحديث ، طبعـــة دار الفجــر للنشــر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٤، ٨٤،٨٥.

– كامل محمد المغربي ، الســـلوك التنظيمـــي ، ص ٣٦،٣٧.

التعالي Sublimationحيث يشبع رغبته الكامنة ويعبر عن شعوره الباطني بطريقة مألوفة كالأدب ، وكأن ما عبر عنه نزار من رغبة في الانتقام من المجتمع – دفاع الأنا – قد جاء بطريقة تعميم الحب الذي ماتت بسببه أخته عن طريق تحبيب الرجال بالافتتان بالنساء والجري ورائهن ، وتشجيع النساء على التحرر من قيود المجتمع ودينه وأخلاقياته ..(١) :

فضاجعي من شئت أن تُضاجعي ..
ومارسي الحُبَّ .
على أرصفةِ الشوارعِ

وكل ذلك في النهاية يحقق الوصال غير المشروع ، وكأنه بذلك يبين أن ما فعلته أخته عمل عادي يجب أن يفعله الجميع ، وأن ممارسة الحب ليست جريمة.. وقد عبر عن ذلك بوضوح في العديد من المناسبات

---

(١) نزار قباني ، الرسم بالكلمات ، منشورات نزار قباني ، ط. السادسة ، بيروت١٩٧٣ ، ص١٣٣.

والقصائد ، من ذلك قوله (١):

لماذا لا يكون الحبُّ في الدنيا ؟
لكلِّ الناس .. كُلِّ الناس ..
مثلَ أشعَّةِ الفجْرِ ..
لماذا لا يكون الحبُّ مثلَ الخبز والخَمْرِ ؟

تحرير المرأة :

وبعد .. ماذا يقصد نزار بقوله : " لقد حذفت جسد المرأة من قائمة الخراف التي تنتظر الذبح " ؟ هل يقصد احترام آدمية المرأة في الحب ومزايلة الشهوة البهيمية وإقامة علاقة سوية معها ؟ قد يوهمنا قوله " جسد المرأة " بذلك ويلغي ما تشير إليه كلمة " الذبح " خاصة إذا ما ربطنا قوله هذا بمجمل أقواله في

---

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ، ١/٦٠٠.

تحرير المرأة العربية التي منها مثلاً قوله :" إنني أربط قضيتها بحرب التحرير الاجتماعية ، التي يخوضها العالم العربي اليوم .. إنني أكتب اليوم لأنقذها من أضراس ، وأظافر الرجال إنني أريد أن أنهي حالة المرأة الوليمة ، أو المرأة " المنسف وأحررها من سيف عنترة ، وأبي زيد الهلالي.."(١).

وقوله في تحريض المرأة على واقعها في المجتمع العربي(٢):

ثُوري أحبّكِ أن تَثُوري ..
ثُوري على شرق السبايا ..
والتكايا .. والبخُورِ
ثوري على التاريخ ، وانتصري
على الوهمِ الكبيرِ

---

(١) ميز العكش ، أسئلة الشعر ، ص١٨٠

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة ، منشورات نزار قباني ، الطبعة الثالثة عشرة ، بيروت١٩٩٣، ٥٧٤/١

لا ترهبي أحداً .

فإنّ الشمسَ مقبرةُ النسورِ

ثُوري على شرقٍ يراكِ وليمةً فوقَ السريرِ

ولنفترض أنه معنى إذن بتحرير المرأة من ربقة قيود المجتمع وهيمنة الرجل ، لا يريدها مقيدة بأغلال الحب والجنس (١) ، يريدها أن تعرف ما تريد وأن تعلن الثورة على سلطة الرجل وتسلطه عليها كما يتضح في ديوانه " يوميات امرأة لا مبالية " ، الذي منه هذه الصورة الهجائية للأب كرمز على سلطة الرجل وتسلطه (٢) :

لماذا يستبدُّ أبي ؟

ويُرهقني بسُلْطتهِ ..

وينظرُ لي كآنيةٍ

---

(١) انظر : إحسان عباس ، اتجاهات الشعر العربي المعاصر ، ط٢ ، دار الشروق ، عمان ١٩٩٢ ص ١٤٠ .

(٢) الأعمال الكاملة ١/ ٥٩٢ ــ ٥٩٣ .

كسطرٍ في جريدتِهِ

ويحرصُ أن أظلَّ له

كأنّي بعضُ ثروتِهِ

. . . .

أبي .. لم ينتبهْ يوماً

إلى جسدي .. وثورتِهِ

أبي رجلٌ أنانيٌّ

مريضٌ في محبتهِ

مريضٌ في تعصبّهِ

مريضٌ في تعنتّهِ..

يثورُ .. إذا رأى صدري

تمادى في استدارتِهِ

يثورُ .. إذا رأى رجلاً

يقرّبُ من حديقتهِ

وقوله (١) :

---

(١) نفسه ٦٠٨ .

أبي صنفٌ من البَشَرِ

مزيجٌ من غباء التُرّكِ ..

من عصبيّةِ التَتَرِ ..

أبي .. أثرٌ من الحَجَرِ ..

....

كهارون الرشيد أبي ..

جواريهِ ، مواليهِ ،

تَمَطيهِ على تختٍ من الطُرَرِ

ونحن هنا ..

سباياهُ ، ضحاياهُ

مماسحُ قصرِهِ القذرِ ..

إذن من هي المرأة التي ينـــاضل نـــزار مـــن أجـــل حريتها؟ وهل فعلاً ناضل من أجل حرية المرأة؟ ومـــا هي الحرية التي يريدها نزار ؟

أظن أنه لم يفعل ذلك حيث بقي معبراً عما في عقلـــه الباطن ومخزون تجربته أو عقدتـــه الخاصـــة ــ إن

جـــاز التعبير ــ حيث لم نر أن المرأة الأرســتقراطية ذات المايوه الأزرق ، وثوب النوم الــوردي ، وكــم الدانتيل، التي تستعمل العطور من ماركـــة : لانكوم ، وديفا ، وغولواز ، وشانيل .. وأحمــر الشـفاه مــن ماركة : ستندال و بورجوا .. تعـــاني مــن القيــود الاجتماعية والأخلاقية . (١)

إن هذه المرأة الأرستقراطية هــي المســيطرة علــى وجدانه ، المتربعة على عرش شعره .. وهـــي فـــي ظني تنعم بقسط وافر من الحرية لم تنعم به قرينتـــها التي تعيش في البيئات والتجمعات الشعبية التي تعاني قيود العادات والتقاليد وهيمنة الرجل على حد زعـــم نزار أو وجهة نظره ..

إن الشريحة التي استهدفها نزار بحريته المزعومة هي الشريحة التي صرخ بعض الشعراء في عصر نـــزار الأول ضاجين من مبالغتها في التعبير عــن مظـــاهر

(١) راجع الضوء واللعبة ص٤٧٨ .

حريتها ، فاسكندر الخوري الـذي أصـدر ديوانـه " العنقود " بعد ديوان نزار الأول " قالت لي السمراء " بعامين تحدث عن تجاوز المرأة حدود الذوق العام في التعبير عن حريتها في أكثر من قصيدة ، فمثلاً في قصيدة بعنوان " ليلة راقصة " يصور الخلاعة وما تفضي إليه هذه الليالي الراقصة من ألوان الرذيلة(١)، وفي قصيدة أخرى يتحدث عن الكاسيات العاريات من النساء بمثل قوله (٢) :

بارزاتِ النُّهودِ حُمْرَ الخُدودِ
عارياتِ الصدورِ ضُمْرَ القُدودِ
يتخطَّرْنَ في الشوارع تِيهاً
بِحُلِيٍ منْ أَساورٍ وعقودِ
وبُرودٍ شفَّافةٍ من حريرِ

---

(١) اسكندر الخوري ، العنقود ، مطبعة بيت المقدس ، القدس ١٩٤٦ ، ص٤٣، ٤٤ .

(٢) العنقود ، ٦٩ ، ٧٠ ، وانظر أيضاً : قصيدة بعنوان سيدات ص٧١ .

شَفٌّ عما اختَفــى وراءَ الــبرودِ
سِرنَ يُرْسِلْنَ أسهماً مــنْ عيــونٍ
فاتنات مـــا بيــنَ زُرْقٍ وسُــودِ
يَتَلَفَّتْـــنَ تـــارةً بـــازدراءٍ
ويُقَهْقِهْـــنَ تـــارةً كـــالوَليدِ
غانياتِ الأعـــرابِ مــهلاً فإنَّــا
في احتياجٍ إلى الصـــلاحِ شـــديد

إذن أية حرية تلك التي يريدها نزار ؟ وما هو مفهومه عن المرأة والحب ؟

هل أخطئ لو زعمت أنه يريد تحرير المرأة من قيــود القيم والأخلاق ، واحترامها لذاتها ، يريدها أن تنطلق خلف شهواتها لتصبح جارية في ماخور الجنس تحــت أقدام الرجال لكي يفصّل بعد ذلك مــن جلــد النســاء عباءة كيفما شاء ، ولكي يحلو له أن يقــول مفــاخراً

معتزاً برجولته (١):

لم يبقَ نهدٌ أسودٌ أو أبيضٌ

إلا زرعتُ بأرضه راياتي ..

لم تبقَ زاويةٌ بجسم جميلةٍ

إلا ومرّتْ فوقها عَرَباتي ..

فصّلتُ من جلد النساء عباءةً

وبنيتُ أهراماً من الحَلَماتِ

ثم تقول هي بعد ذلك ما يريده نزار (٢):

رجلٌ يمنحني شُعلتَهُ

ما أطيبَ رائحةَ الرَجُلِ

....

ووقفتُ أمامَ رجولتِهِ

كصغيرٍ ضيَّع أبَوَيْهِ

---

(١) نزار قباني ، الرسم بالكلمات ، منشورات نزار قباني ، الطبعة السادسة ، بيروت١٩٧٣ ، ص١٤

(٢) الأعمال الكاملة ، ١/٤٢٢،٤٢٣

كالأرنبِ ما .. ما أصْغرَني

يا ربِّي بين ذراعَيهِ

إنه إذن غير معني بتحرير المرأة ، وأن تشعر بإنسانيتها ، بالمفهوم السائد للمصطلح " تحرير المرأة"، بل معنى بتحويلها عبدة لشهواتها ؛ إن الحرية التي ينشدها نزار للمرأة هي "حرية جنسية مطلقة ، حرية بلا مسئولية وبلا قيود ، حرية كحرية الطير والحيوان سواء بسواء .."(١) فكأني به يبرهن على صحة فهمه لحقيقة شعره في المرأة على أنه انتقام من مجتمع يرفض الحب أو فلنقل صراحة يرفض الحب الذي يقصده نزار ، إنها حرية الجسد لا الروح،(٢) :

خَلَوْتُ اليومَ ساعاتٍ إلى جسدي..

---

(١) د.عبد المحسن طه بدر ،حول الأديب والواقع ، الطبعة الثانية، دار المعارف بمصر ، ص١٣١

(٢) السابق ، أ/٥٩٠

أُفكّرُ في قضاياهُ

أليسَ لهُ هو الثاني قضاياهُ ؟

يؤكد ذلك قوله : " كل النساء أساساً هنَّ للحب ، ولكن الرجل هو الذي يوظفهنّ لديه زوجات بلا راتب .. أو يضعهنّ في الفريزر ليطبخهنَّ عندما يكون لديه وليمة"(١).

ما هذا الخلط بين المشروع واللامشروع ، بين الفضيلة والرذيلة ، إن مقولة نزار هذه لا تفهم بمعزل عن مفهومه عن الحب ، إن مفهوم الحب عنده مرادف للجنس تماماً ، هذا ما نراه في معظم شعره في المرأة وتصريحاته ، حتى حينما بدأ مرحلة التحول في علاقته بالمرأة ؛ هذه المرحلة التي تحدث عنها أكثر من دارس من دارسي شعره (٢) ، لم يتغير

---

(١) جهاد فاضل ، أسئلة الشعر "حوارات مع الشعراء العرب" ، الدار العربية للكتاب ، ص٣٦١

(٢) انظر : نزار قباني وعمربن أبي ربيعة ، ١٩٤ ، ١٩٥ .

مفهومه هذا عن الحب بل بدأ يفرق بين التي يشتهيها أو فلنقل التي تصلح لممارسة حبه وغيرها من النساء، يفرق بين هذا الحب وعلاقات أخرى كالصداقة مثلاً(١) :

أبحثُ يا كبيرة العيون
أبحثُ يا فارغةَ العيونْ
عن الصلاتِ المُتْعِبَةْ
عن الشفاه المخطئَةْ
وأنت يا صديقتي
نقية كاللؤلؤهْ

أما الحب في مفهوم نزار كما رأيناه وكما رآه من سبقنا من الدارسين والنقاد (٢) ، الحب الذي يناضل

---

(١) الأعمال الكاملة ٣٠٨/١ ، ٣٠٩ .

(٢) انظر : - أحمد بسام ساعي ، حركة الشعر الحديث في سورية، ط ١، دار المأمون للتراث ١٩٧٨،ص٤٦٦
- إحسان عباس ، اتجاهات الشعر العربي ،ص١٣٧ .
- نزار قباني وعمر بن أبي ربيعة ، ١٩٤.

نزار من أجله كي يصبح مباحاً ، فهو الـــذي يقــول فيه(١):

أُسائِلُ دائماً نفسي :
لماذا لا يكون الحبُّ في الدنيا ؟
لكلِّ الناس .. كُلِّ الناس ..
مثلَ أشعَّةِ الفجْرِ ..
لماذا لا يكون الحبُّ مثلَ الخبز والخَمْرِ ؟

هل يتساوى الخـــبز مـــع الخمـــر ؟ أم هـــو الخلـــط واضطراب المفاهيم ؟ أليس من الغريـــب أن يزعـــم نزار أنه معني بتحرير المرأة ، أو كما قـــال نـــزار نفسه: " أليس من مفارقات القدر أن أصرخ أنا بلســان النساء..؟"(٢).

---

(١) الأعمال الكاملة ، ١/٦٠٠

(٢) نزار قباني وعمر بن أبي ربيعة ، ص٦٥

المرأة والإبداع :

لم يكن نزار بدعاً بين شعراء عصــــره فـــي نظرته إلى الحب ، فكثير من شعراء عصره نظر إلى المرأة كجسد ، وكان مفهومهم عـــن الحـــب مرادفـــاً للجنس أحياناً أو مرتبطاً به بصورة سافرة لا تخضـــع لعادات وتقاليد المجتمع وأخلاقياته فـــي كثـــير مـــن الأحيان (١).

وقد أرجع بعض الدارسين ذلك إلى متغيرات الواقـــع والنزعة المادية الطاغية ، من ذلـــك قـــول الســـعيد الورقي : " .. فأبو شبكة وعقـــل ونـــزار والشـــهال ومحمود السيد شعراء يواجهون العالم بحواس نهمـــة ، ومن هنا كان شعرهم صورة عن عالم لا مكان فيه إلا للموجودات الحسية . وهم في تناولهم لهذه الموجودات

(١) انظر : لغة الشعر العربي٣٨٤ . و الضوء واللعبة ، ص٩٥

الحسية يرحلون فيها رحلة بحث عن جمال مطلـــق ، هذا الجمال الذي لا يمكن أن يتوافر إلا في المـــرأة ، ومن هنا عاشت المرأة في حواسهم جسداً يمنح اللـــذة والجمال والخصب .. " (١) .

والأمر الملفت للنظر عند نزار هو اســتغراقه في شعر الحب وتصوير جسد المرأة ، وتقديم قضايـــا جسدها على باقي القضايا الملحة وعدم إشـــراك أيـــة قضايا أخرى مهما كانت جليلة مـــع قضايـــا الحـــب والمرأة وأدوات زينة جسدها .

والأمر في حكمنا هذا متفـــاوت بيـــن ديـــوان وآخر ، ومرحلة وأخرى من مراحـــل حيـــاة نـــزار وشعره ، وتكون الفوارق مرتبطة باكتشـــافات نـــزار لمواطن الجمال والشهوة في جسد المرأة ، ففي مرحلة نزار الأولى ينطبق هذا الحكم على جميـــع دواوينـــه الأولى : قالت لي السمراء ، طفولة نـــهد ، ســـامبا ،

---

(١) لغة الشعر العربي الحديث ، ص٣٨٤ .

أنت لي ، قصائد ، حبيبتي ، الرسم بالكلمات، ويوميات امرأة لا مبالية ، كتاب الحب .. ، حيث يلاحظ الدارس انصباب اهتمام نزار على النهد أولاً كرمز من رموز الجنس ومصدر من مصادر الشهوة والغريزة ، وقد تجلى ذلك في عنوانات قصائد عديدة مثل : رافعة النهد ، نهداك ، مدنسة الحليب (١) ، سمعة ونهد ، حلمة ، مصلوبة النهدين(٢) ، إلى نهدين مغرورين (٣) ، قراءة في نهدين إفريقيين(٤)، هذا بالإضافة إلى أنه لا تكاد تخلو معظم قصائد تلك

---

(١) ديوان قالت لي السمراء ، الطبعة الثالثة ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٠

(٢) ديوان طفولة نهد ، ط١٢ ، منشورات نزار ، بيروت ١٩٧٣

(٣) ديوان يوميات امرأة لا مبالية ، الطبعة الأولى ، منشورات نزار قباني ، بيروت ١٩٦٨

(٤) ديوان أحبك أحبك والبقية تأتي ، الطبعة الأولى ، منشورات نزار قباني ، بيروت١٩٧٨

الدواوين من ذكر النهدين ، من ذلك قوله (١) :

ونهدُكِ .. تحت ارتفاف القميص

شهيّ .. شهيّ .. كطعنة خنجرْ .

وقوله (٢) :

اسألي ناهديكِ عن بَصَماتي

كلُّ نهدٍ ، أشعلتُ فيه حريقاً .

وقوله (٣) :

النَهْدُ مثلُ القائد العربيِّ يأمُرُني:

تَقَدَّمْ للأمامْ ..

وقوله (٤):

لِمَنْ صدري أنا يكبرْ ؟

---

(١) الرسم بالكلمات ، الطبعة السادسة ، منشورات نزار قباني ، بيروت ١٩٧٣، ص٢٢ .

(٢) الرسم بالكلمات ، ص ١٤١ .

(٣) الأعمال الشعرية الكاملة ، الطبعة السابعة ، منشورات نزار قباني ، بيروت١٩٩٣، ٢/٨٤٠ .

(٤) السابق ، ١/٥٨٩

لِمَنْ .. كَرَزَاتُهُ دارتْ ؟

لِمَنْ .. تفّاحُهُ أزهَرْ ؟

ثم تأتي الشفة في المرتبة الثانية من مراتـــب اهتمـــام نزار بجسد المرأة ورموزه الجنسية ، كما خصـــص قصائد بأكملها للنهد ووصف مواطن اثارته كذلك فعل في الشفة ، من ذلك مثلاً قصيـــدة " فـــم " (١) ، و " الشفة " و " القبلة الأولى " ، و " همجية الشـــفتين " (٢) ، و " الفـــم المطيــــــب " (٣) ، " مشـــبوهة الشفتين"(٤) .. وهي في المرتبة الثانية أيضـــاً فـــي تردها بين ثنايا قصائد دواوينه التي تناول فيها جســـد المرأة ، ومن ذلك مثلاً قوله (٥) :

---

(١) ديوان قالت لي السمراء .

(٢) ديوان طفولة نهد .

(٣) ديوان سامبا ، الطبعة الثالثة ، دار الآداب ، بيروت ١٩٦٠

(٤) ديوان قصائد من نزار قباني ، الطبعة الرابعـة ، دار الآداب ، بيروت ١٩٦٠

(٥) الأعمال الكاملة ٢/٨٤٠ .

والفُلْفُلُ الهنديُّ في الشفتين يهتفُ بي :
تقدَّمْ للأمام .

وقوله (١) :

أنا الشفتانِ .. وأنتَ الصدَى
سألتُكَ بالله .. كُنْ ناعماً
إذا ما ضممتَ حروفي غدا ..

وقوله (٢) :

أأصومُ عن شَفَتَيْكِ ؟
فوقَ رجولتي ما تطلبينْ

وتتنازع اهتمام نزار باقي أعضاء جسد المرأة، فنرى الساق ، وضفائر شعر المرأة ، وخصرها ، والأصابع الملساء ، والعين بألوانها المختلفة : الخضراء والزرقاء والزيتية .. ، ثم

---

(١) السابق ، ١/١٨ .

(٢) الأعمال الكاملة ١/٤٣٦ .

الأظافر وزينتها ... ، وأمثلة ذلك لا حصر لها في شعر نزار عامة ، وإن كانت أكثر إثارة وحسية في دواوينه سابقة الذكر ، فمن عنوانات بعض قصائده مثل : "إلى ساق" ، و"الضفائر السود" و "طائشة الضفائر"(١) و "إلى ضفيرتي ماس"(٢) و "شعري سرير من ذهب"(٣) و "المجد للضفائر الطويلة"(٤)، و"خصر" ، و "أنامل"(٥) و"الكبريت والأصابع" (٦)، و " التفكير بالأصابع"(٧) ، و " لحمها وأظافري"(٨)، و" إلى عينين شماليتين " ، و " رحلة في العيون

---

(١) ديوان طفولة نهد .

(٢) ديوان سامبا .

(٣) ديوان حبيبتي .

(٤) ديوان الرسم بالكلمات .

(٥) ديوان أنت لي ، الطبعة الثالثة ، دار الآداب ، بيروت١٩٥٩

(٦) ديوان حبيبتي ، الطبعة الأولى ، دار الآداب ، بيروت ١٩٦١

(٧) ديوان الرسم بالكلمات .

(٨) ديوان قصائد متوحشة .

الزرق"(١)، و " العين الخضراء " (٢) ، .. نستجلي هذا الأمر ، هذا بالإضافة إلى تناثر هذه الأجزاء بين ثنايا معظم شعره ، فمن ذلك قوله (٣):

عربدتْ ساقُها .. نُهَيْرَ أناقاتٍ ..

وسال البريقُ في أنبوبِ ..

....

اذهبي .. غيّري مكانكِ .. اخفي

ترفَ الساق .. أنتِ أصلُ شجوني

ادخليها لوكرها .. كلُّ عرقٍ

من عروقي يصيحُ : أينَ نصيبي .؟

وقوله (٤) :

أحبُّكِ حرفاً ببالِ الدواةِ

ووعداً على الشفة الكاذبَة

---

(١) يوان قصائد .

(٢) ديوان طفولة نهد .

(٣) الأعمال الكاملة ، ١/١٢٧،١٢٨

(٤) الأعمال الكاملة ١/٥٠

وخصرا يعيش بنعمى يد

ويحلم بالراحة الغاصبه

وقوله (١) :

أحبك .. مقلة وصفاء عين

إليها قبل ، ما اهتدت القلوع

أحبك .. لا يحد هواي حد

ولا ادعت الضمائر والضلوع

أشم بفيكِ رائحة المراعي

ويلهث في ضفائرك القطيع..

وهو في خضم هذا كله لا ينسى أدوات زينة هذا الجسد ومبرزات فتنته : المايوه الأزرق ، والجورب ، وثوب النوم الوردي ، والتنورة .. ، وقلم الشفاه ، وصنوف الماكياج ، والعطور الفاخرة ...

وكذلك الحالات الحركية التي تكون فيها المرأة أكثر إثارة ، كأن يصورها وهي مضطجعة ، أو وهي

---

(١) السابق ، ٤٦/١ .

ترقص ـــ ديوان سامبا ـــ ، أو وهي تداعب بعـــض أجزاء جسدها .... ذلك ما نراه في دلالـــة عنوانـــات العديد من قصائده ، مثل : مذعورة الفستان ، القـــرط الطويل(١)، أزرار ، إلى رداء أصفر ، إلى وشـــاح أحمر (٢) ، أثواب ، مـــانيكور ، المـــايوه الأزرق ، ثوب النوم الوردي ، أحمر الشفاه (٣) ، كم الدانتيل ، القميص الأبيض ، رباط العنـــق الأخضـــر ، عـــودة التنورة المزركشة ، الجـــورب المقطـــوع ، طـــوق الياســـمين (٤) ، القـــرط الطمـــــوح(٥) ، إلـــى مضطجعة(٦) ....

يلاحظ الدارس أيضا أن تعامل نزار مع جســد

---

(١) ديوان قالت لي السمراء .

(٢) ديوان طفولة نهد .

(٣) ديوان أنت لي .

(٤) ديوان قصائد .

(٥) ديوان الرسم بالكلمات .

(٦) طفولة نهد .

المرأة بدأ سافراً منطلقاً عن عقال الدين والأخـــلاق ؛ متمرداً على نواميس المجتمع والعفة ؛ قارنـــــا بيــن تصويره الجريء للمواطن سابقة الذكر وبين مفهومــه المادي للحب بجرأة منقطعة النظير غالباً ، من ذلك ما نراه في مثل قوله(١) :

فضاجعي من شئت أن تُضاجعي ..
ومارسي الحُبَّ .
على أرصفةِ الشوارعِ
نامي مع الحوذيّ ، واللوطيّ ،
والإسكافِ .. والمُزَارعِ ..
نامي مع الملوك ، واللصوص ،
والنُسَّاكِ في الصوامعِ ..
نامي مع النساءِ – لا فرقَ –
مع الريح ، مع الزوابعِ ..
فلن تكوني امرأةً ..

---

(١) الرسم بالكلمات ص١٣٣،١٣٤ .

إلاّ معي ..

إلاّ معي ..

وإذا كان في الأنموذج السابق يلمح أيضاً للسحاق فإنه في أنموذج آخر يصل إلى حدّ الوقاحة حين يصــــور مشاهده في مثل قوله (١) :

الذئبة تُرضع ذئبتَها

ويدٌ تجتاحُ و تجتاحُ

ودثارٌ فرَّ .. فواحدةٌ

تُدنيه .. وأخرى ترتاحُ

وحوارُ نهودٌ أربعةٍ

تتهامسُ والهمسُ مباحُ

....

أتراني كُوّنتُ امرأةً

كي تمضغَ نهدي الأشباحُ

أشذوذُ .. أختاه إذا ما

(١) الأعمال ١/٣٥٢ ، ٣٥٣ .

لَثمَ التفاحَ التفاحُ

نحنُ امرأتان .. لنا قِمَمٌ

ولنا أنواءٌ .. ورياحُ

مطرٌ .. مطرُ .. وصديقتُها

معها ، ولتشرينَ نواحُ

والبابُ تئنُّ مفاصلُهُ

ويعربدُ فيه المفتاحُ

وهو في خضم حديثه عن مفاتن جسد المرأة وتصوير حاجتها لممارسة الحب لا ينسى أحياناً أن يبرهن على حرية اختيارها (١) :

ليس هناك امرأةٌ

تُغْتصبُ اغتصابْ

هل ممكنٌ

أن يقرأ الإنسانُ في كتابْ

حين يكون مُغْلَقَاً

---

(١) الأعمال الكاملة ٥٥٤/١ .

أمامه الكتاب ؟

وهو في خضم ذلك كله لا يستغني عن المـــزج بيـــن مفاتن جســدها وأدوات زينتـــها وملابســها الشــفافة وحركاتها المثيرة للغريزة .. ، وبعـــــد أن يســتغرق جميع هذه المعاني في دواوينه الأولى بصفة عامـــة ، تبدأ منزلة جسد المرأة في التراجع ، وتبـــدأ مرحلـــة جديدة تتجلى في تقدم أشياء المــــرأة لتحتـــل مكـــان الصدارة ، ويكون ذكر الجسد تابعا مـــن خـــلال مـــا تكشف عنه ملابســــها وأدوات زينتــها .. ويتبـــاعد الحديث عن الجنس بصورته السافرة ، ويجتهد نـــزار في فلسفة الأشياء في محاولة ذكية لتبرير هذا الاتجـــاه وترميز المرأة والجنس .

ففي إطار التبرير نرى العديد من التـــبريرات التي قد تصل إلى حد التناقض والاضطراب ، فمـــن تبريراته مثلا : أن النوم في عيـــون النســـاء أكـــثر طمأنينته من النوم بين الأسلاك الشائكة ، وأن مملكـــة

الحب أسعد الممالك (١) .

وهذا تبرير يتناقض مع واقع حياة نـــزار الـــذي لـــم يتعرض يوما للسجن والنوم بين الأسلاك الشـــائكة ، والذي احتفل به العالم العربي بشعره واستقبله الأمراء والحكام بحفاوة بالغة حتى وهو يهجو أمراء النفط ثـــم يعرض بالعروبة والزعماء العـــرب فـــي أخريـــات حياته(٢) .

أما تبريره المرتبط بدعواه أنه يســـعى إلـــى تحرير المرأة ويتبنى قضاياها فقد بينا الرأي فيه فيمـــا سبق ، ويكفي أن نرى هذه الصورة من صور دفاعـــه عن المرأة ومطالبته بتحرير نهدها ، يقول (٣) :

فكل مذبوحة دافعت عن دمها

وكل خائفة أهديتها وطنا

---

(١) منير العكش ، أسئلة الشعر ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٢) انظر مثلا : قصائده : المهرولون ، متى يعلنون وفاة العرب ، عزف منفرد على إيقاع الطبلة ، ضد كل شئ وغيرها الكثير ..

(٣) الأعمال الكاملة ٢/٧٤٠

وكل نهد .. أنا أيدت ثورته

وما ترددت في أن أدفع الثمنا

أنا مع الحب ، حتى حين يقتلني

إذا تخليت عن عشقي .. فلست أنا ..

إلى غير ذلك من التبريرات التي مرت بنا في أثناء التعرف على عوامل اتجاه نزار هذه الوجهة الغزلية .

وفي إطار ترميز المرأة والجنس نرى المرأة أحيانا تجربة وقصيدة ، تلهم نزار أبجديات شعره ومعاني مفرداته .. وهي في ذات الوقت لا تتخلى عن كونها جسدا يمنح اللذة والجمال والخصب .. ، ويشكل الجنس في البداية مركز الدائرة ثم يصبح مع التقادم والتكرار مرفأ من المرافئ القديمة التي لم تعد قادرة على بعث القصيدة أو إثارة القريحة ، وكما غير نزار مرافئ الشهوة ومواطن الإثارة في جسد المرأة مع كل تجربة وقصيدة كان عليه أن يبحث في النهاية عن قطب جديد له ذات الجاذبية التي كانت من قبل لجسد

المرأة . وفي هذا السياق يقول نزار (١) : " المـــرأة موقف من المواقف في رحلتي البحريـــة الطويلـــة : ميناء من الموانئ ، زودني ذات يوم بالخبز، والماء ، والحرير ، و أعواد البخور ، لكن بقية الموانئ ظلــت تنادي سفينتي .. إن أسوأ شئ في تاريخ البحار ، هـو الرسو في ميناء واحد فـــالموانئ الواحـــدة مقبـــرة الطموح .. إنني لم أتوقف لحظة من اللحظـــات عـــن تغيير جلدي إنني أشعر دائما أنني أقف على أرض لا ثبات لها ، و أن خيول الشعر تركـــض مـــن حولـــي بالمئات ، و أنني إذا لم أغير طريقة ركضي، وسرج فرسي ، سقطت تحت حوافر الخيول المتسابقة ... "

قد يبدو حديث نزار هذا مقنعا ، وقد نرى معه أنه لم يتوقف لحظة من اللحظات عن تغيير جلده .. و لكن في أي مرفأ ؟

لقد غير نزار جلده مئات المرات فـــي مرفـــأ

---

(١) منير العكش ، أسئلة الشعر ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٤ .

المرأة وفي حجرة نومها ولـــــم ينـــس أنـــه رســـول الحب(١) :

إني رسول الحب ..

أحمل للنساء مفاجآتي

لو أنني بالخمر .. لم أغسلهما

نهداك .. ما كانا على قيد الحياة

فإذا استدارت حلمتاك

فتلك أصغر معجزاتي

ولم ينس أن يذكرنا بأن الحب (٢) :

قصيدة جميلة مكتوبة على القمر

---

(١) الضوء و اللعبة ٥٥٨/١ وهو في ذلك يذكرنا بالبهاء زهير في قوله :

أنا في الحب صاحب المعجزات   جئت للعاشقين بالآيات

كان أهل الغرام قبلي أميـــــــ   ـــين حتى تلقنوا كلماتي

– انظر : د نبيل أبو علي ، محاضرات في الأدب المملوكـــي ، طـــ .الأولى ، مطبعة الوحدة . رام الله ، ص ٤٩

(٢) الأعمال الكاملة ، ٧٣٨/١ .

الحب مرسوم على جميع أوراق الشجر

وأن بقاء الشعر منوط ببقاء المرأة الملهمة في متناول اليد (١) :

أريدك أنثى

لتبقى الحياة على أرضنا ممكنة ..

وتبقى القصائد في عصرنا ممكنة ..

لذلك فهو يقرر أنه لن يتخلى أبدا عن شعره في المرأة : " إن فكرة التوبة عن شعري النسائي ، غير واردة ، فكرة جبانة وسخيفة ، فأنا لا أنوي أبدا توقيع معاهدة فك ارتباط مع الشعر .. " (٢)

وبطريقة واعية يريد نزار أن يجعل تعاطيه السافر مع الجنس قيمة فنية ، وأنه لم يكن أكثر من مسكن لأحزانه و أزماته (٣) ، و أن جميع النساء لديه سواء

---

(١) السابق ، ٢/٨٢٣ .

(٢) المرأة في شعري وفي جياتي ، ص١٥ .

(٣) انظر : حول الأديب والواقع ، ص١١٩

لا يخرجن عن كونهن قصائدا شعرية ، و أن لا خصوصية في حبه (١) :

الجنس كان مسكنا جربته

لم ينه أحزاني ولا أزماتي

الحب أصبح كله متشابها

كتشابه الأوراق في الغابات

أنا عاجز عن عشق أية نملة

أو غيمة .. عن عشق أي حصاة

ولكن يبدو أنه لن يتمكن حتى وهو يسعى إلى تغيير جلده ، فالمرأة جزء من موروثه وتاريخه الشعري ، هي الملهمة التي يثير جسدها قريحة الشعر (٢) :

اجلسي خمس دقائق

لا يريد الشعر كي يسقط كالدراويش

في الغيبوبة الكبرى

---

(١) الرسم بالكلمات ، ١٦ ، ١٧ .

(٢) أسئلة الشعر ، ص ٣٤

سوى خمس دقائق

لا يريد الشعر كي يثقب لحم الورق العاري

سوى خمس دقائق

فاعشقيني لدقائق

واختفي عن ناظري بعد دقائق

إن الواقع لم يعد يحتمل اغراق نزار في جسد المرأة ، ونزار يخشى أن تفوته خيول الشعر في ظل الواقـــع العربي المأزوم ، لذلك يهتف قائلا (١) :

أريد الخروج من القن

حيث الدجاجات

ليس يفرقن بين الصباح وبين المساء

أريد الخروج من القن

إن الدجاجات مزقن ثوبي

وحللن لحمي

كرهت كتابة شعري على جسد الغانيات

---

(١) السابق ، ص ٣٥

أريد استعادة وجهي البرئ كوجه الصلاة

أريد الرجوع إلى صدر أمي

أريد الحياة

....

صحيح بأن المكان أنيق

و أن النبيذ عتيق

ولكني رغم هذا الإطار الملوكي حولي

أحس بأني أموت كشاعر

ويؤكد على ذلك في نداء وجهه عام ١٩٨٥ جاء فيه : " هل من الممكن إكراما لكل الأنبياء أن تخرجوني من هذه القارورة الضيقة التي وضعتني فيها الصحافة العربية : أي قارورة الحب والمرأة .. يا جماعة : أنا من زمان مستقيل من عملي كحارس ليلي على باب المرأة .. أنا الآن أؤدي خدمتي العسكرية للوطن . وممنوع علي أن أقابل حبيبتي إلا في أيام

الإجازات..(١) .

إن جميع تصريحات نزار وبياناته الشـــعرية التي تدلل على إدراكه لأهمية التغيير بعد أن استنزف معاني الغزل في جسد المرأة ووصف أشيائها رغم ما يبدو من التناقض الظاهري بين بعض هذه الأقـوال ، فقوله مثلا :" إن فكرة التوبة عن شعري النسائي غير واردة " لا يتعارض مع باقي أقواله وأشـعاره التـي يتحدث فيها عن ضرورة التغيير ، وقوله : " ممنـوع علي أن أقابل حبيبتي إلا في الإجـازات " لا يعنـي هجرانها بقدر ما يعني تراجع منزلتها أمام القصيـدة السياسية .

لقد بدأت رياح التغيير في شعر نزار منذ أكثر من ثلاثين سنة حينما كتب قصيدة "هوامش على دفـتر النكسة "(٢) ، فبعد أن كان معرضـا عـن قضايـا

---

(١) الضوء واللعبة ، ص ٤٧١

(٢) لقد استهجن خصوم شعر نزار هذا التحول ورأوا أنه أحد عمد

الوطن؛ لا يتيح له انشغاله بقضايا المرأة حتى تسجيل لحظة استقلال سوريا وخروجها من تحت عباءة الانتداب الفرنسي، بدأ بين الفينة والأخرى يلتفت لبعض القضايا العربية ؛ ويواكب ميلاد العمل الفدائي الفلسطيني، ويسجل موقفه الصارخ من تخاذل بعض الحكومات العربية وممارسات أمراء النفط .. وحينما خطفت قضية فلسطين الأضواء في الساحة العربية والدولية ؛ كان نزار قد حجز له مقعدا في الصفوف الأولى بين مؤيديها ، ثم وصل إلى مرتبة الصدارة في المرحلة الأخيرة من حياته ، ولم يكن ذلك على حساب قصائده الذائعة في شئون جسد المرأة وبهرجها، بل كان مسايرا متطلبات التغيير في الواقع العربي ــ السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي ــ وما نتج عنه من تغير في الذوق العربي العام منذ

العالم القديم الذي أدى إلى النكسة..

راجع : حول الأديب والواقع ، ص١٢١

العام ٦٧ حتى أيامنا هذه ، بالتدرج البطـــيء بـــدأت القصيدة السياسية تتقدم حتى تمكنت في نهاية المطاف من خطف الأضواء من قصائده النســـائية واحتلـــت مركز الاهتمام وقطب الشهرة ..

نعم لقد بدأت القصيدة السياسية تجد مكانها بين قصائد شعر نزار الغزلية ، وبدأت القلـــوب العربيـــة تخفق لسماع شعره السياسي كخفقانها لسماع شـــعره الغزلي.. واستمرت القصيدة السياسية جنبا إلى جنـــب مع قصيدة الغزل الصريح تتكئ على رصيد نزار في وجدان الأمة العربية في البداية (١) ثم تحفر مكانتـــها المستقلة في ذلك الوجدان . حيث تستمر ثورة علـــى الواقع المهزوم وتحريضا على أمراء النفط وأثريـــاء

---

(١) لقد طبعت دواوين شعره عشرات المرات ، وهذا يشـــير إلـــى حب العرب الذي كان وراء انتشار دواوينه بهذا الحجم الذي لم يعرفه الشعر العربي من قبل ، فمثلا طبع ديواناه طفولة نهد ، وقالت لي السمراء أكثر من عشرين مرة ، وكذلك كان يستقبل في العواصم والبلدان العربية استقبال الزعماء الفاتحين ...

العرب .. على الساسة والمستعمرين حتى تتربع الأحداث ومجريات السياسة على عرش القصيدة النزارية ، فمثلا تولد حركة "فتح" عملا عسكريا مقاوما فيهتف نزار معلنا عدم الاستسلام (١) :

نرفض أن نكون بعد اليوم طيبين

فالطيبون كلهم أنصاف ميتين

هم سرقوا بلادنا

هم قتلوا أولادنا

فاسمح لنا ، يا ربنا،

نكون قاتلين ..

وتتحول قصيدة " القدس " نشيدا قوميا يردده أبناء الأمة العربية (٢) .

وكما يرصد نزار العمل الفدائي الفلسطيني في كل حركاته تقريضا وتحريضا ، نراه يبكي أخر فرسان

---

(١) الأعمال السياسية ص ١٤٧ . قصيدة " فتح " .

(٢) الأعمال السياسية ص١٦١ .

القومية العربية جمال عبد الناصر في سيل من القصائد الحزينة (١)، ثم نراه يعود من يأسه ليزاوج بين زمن الحب والحرب التي جسدتها حرب أكتوبر ١٩٧٣ م . (٢) وهكذا حتى نصل معه إلى محطته الأخيرة في الشعر السياسي وهي المحطة التي أعلن فيها مرارا ثورته على العرب والعروبة وتنكره لقيمها ومفاخرها حيث تحولت القصيدة في أغلب الأحيان هجاء مقذعا للعرب والعروبة بطريقة تفجر سيلا من التساؤلات ، فقوله مثلا (٣):

لا تسافر بجواز عربي

---

(١) القصائد هي : جمال عبد الناصر ، الهرم الرابع ، رسالة إلى جمال عبد الناصر ، إليه في يوم ميلاده ــ الأعمال السياسية ص ٣٥٥ ــ ٣٩٠ .

(٢) قصيدة ملاحظات في زمن الحب والحرب ، الأعمال السياسية الكاملة ، منشورات نزار قباني ، الطبعة الرابعة ، بيروت ١٩٨٦ ، ٣/٤٤٧ .

(٣) مجلة نضال الشعب ، العدد ١٨، ١٩٩٧ ، ص٦٥.

لا تسافر مرة أخرى لأوروبا

فأوروبا كما تعلم ضاقت بجميع السفهاء

لا تسافر بجواز عربي بين أحياء العرب

فهم من أجل قرش يقتلونك

وهم حين يجوعون مساء يقتلونك

لا تكن ضيفا على حاتم طي

فهو كذاب ونصاب

لا تسر وحدك بين أنياب العرب

يا صديقي رحم الله العرب

وقولـــه (١):

إياك أن تقرأ حرفا من كتابات العرب

فحربهم إشاعة وسيفهم خشب

---

(١) السابق ، ٦٥

وعشقهم خيانة ووعدهم كذب

إياك أن تسمع حرفا من خطابات العرب

فكلها نحو وصرف وأدب

ليس في معاجم الأقوام

قوم اسمهم عرب .....

لا نتخيله يصدر عن عربي قط ، إنه تحريض على العرب وقيمهم ومقومات عروبتهم ..(١).

فإذا كنا نتساءل في البداية عن أسباب تجاهل نزار القضايا الوطنية والهم السياسي العربي ، ولماذا لم يكن مثل معاصريه من الشعراء (٢)الذين لم يحل

---

(١) انظر قصائده : عزف منفرد على إيقاع الطبلة ، أنا مع الإرهاب ، متى يعلنون وفاة العرب ..

(٢) من هؤلاء : سعيد عقل ، صلاح لبكي ، بشارة الخوري ، مصطفى وصفي التل ، عبد الكريم الكرمي ، حسني زيد الكيلاني ....

انغماسهم في الغزل الماجن والوصف الحسي دون الإخلاص للوطن وقضاياه السياسية ؟

ونقرر أن نزار قد وصل فعلا إلى مرحلة إقناع القارئ بجدية دعواه بأن " القصيدة التي لا تنزف على أصابع قرائها مصابة بفقر الدم .."(١) ، ولكنه لم يفلح في وقف سيل من الأسئلة عن القصيدة السياسية وتجاهلها في البداية ثم الوصول بها في النهاية إلى حد الإقذاع في هجاء العرب والتحريض عليهم .

لماذا يقابل نزار حب الشعب العربي له وإقباله على شعره وأمسياته بهذه العدائية ؟ هل هناك معاناة حقيقية دفعته إلى تبني هذا الموقف ؟ أهو جلد للذات العربية وتعبير عن رفض ما وصلت إليه الأمة العربية من التشرذم والهوان .. هذا ما سيحاول الباحث الإجابة عليه في القسم الثاني من هذا الكتاب حيث يتناول فيه شعره السياسي وقضاياه .

---

(١) انظر : قصيدته " ضد كل شيء " .

المصادر والمراجع

- إبراهيم ، عبد الستار : العلاج النفسي السلوكي المعرفي الحديث ، طبعة دار الفجر للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٤.
- أبو علي ، نبيل : محاضرات في الأدب المملوكي، ط١، مطبعة الوحدة ، رام الله ١٩٨٢.
- بدر ، عبد المحسن طه : حول الأديب والواقع ، ط٢ ، دار المعارف بمصر ١٩٨١.
- الخوري ، اسكندر : ديوان العنقود ، مطبعة بيت المقدس ، القدس ١٩٤٦.
- زهران ، حامد : الصحة النفسية والعلاج النفسي ، ط. الثانية ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٧٧ .
- ساعي ، أحمد بسام : حركة الشعر الحديث في سورية ، ط١ ، دار المأمون للتراث ١٩٧٨.
- سويف ، مصطفى : الأسس النفسية للإبداع الفني، ط٢ ، دار المعارف بمصر .

- شنايدر ، د. أي : التحليل النفسي والفن ، ترجمة يوسف عبد المسيح ثروة ، ط. دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨٤.
- عباس ، إحسان : اتجاهات الشعر العربي المعاصر، ط٢ ، دار الشروق ، عمان ١٩٩٢ .
- العكش ، منير : أسئلة الشعر ، ط. المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٩ .
- الغمري ، إبراهيم : السلوك الإنساني والإدارة الحديثة ، ط.دار الجامعات المصرية بالإسكندرية ، دون تاريخ .
- فهمي ، ماهر حسن : نزار قباني وعمر بن أبي ربيعة ــ دراسة في فن الموازنة ، طبعة دار نهضة مصر ، القاهرة ١٩٧١.
- الكيالي ، سامي : الأدب العربي المعاصر في سورية .، ط ٢ دار المعارف بمصر ١٩٦٨.
- المغربي ، كامل محمد : مفاهيم وأسس سلوك الفرد والجماعة في التنظيم ، ط.الثانية، دار الفكر

للنشر والتوزيع ، عمان ١٩٩٤.

- النابلسي ، شاكر : الضوء واللعبة ، ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٦.
- الورقي ، السعيد : لغة الشعر العربي الحديث ، ط.٢، دار المعارف بمصر١٩٨٣.
- فاضل ، جهاد : أسئلة الشعر "حوارات مع الشعراء العرب"، الدار العربية للكتاب ، ط١، بيروت.
- قباني ، نزار :

θ الأعمال السياسية الكاملة ، منشورات نزار قباني ، ط٤ ، بيروت١٩٨٦.

θ الأعمال الشعرية الكاملة ، الجزء الأول ، منشورات نزار قباني ، ط١٣ ، بيروت١٩٩٣.

θ الأعمال الشعرية الكاملة ، الجزء الثاني ، منشورات نزار قباني ، ط٧ ، بيروت١٩٩٣.

θ ديوان أحبك أحبك والبقية تأتي ، ط١ ، منشورات

نزار قباني ، بيروت١٩٧٨.

- ديوان أحلى قصائدي ، منشورات نزار قبـــاني ، بيروت ١٩٧١.
- ديـــوان أنـــت لـــــي ، ط٣ ، دار الآداب ، بيروت١٩٥٩.
- ديـــوان حبيبتـــي ، ط١ ، دار الآداب ، بـــيروت ١٩٦١.
- ديوان الرسم بالكلمات ، منشورات نزار قبـــاني ، ط٦، بيروت١٩٧٣.
- ديوان سامبا ، ط٣ ، دار الآداب ، بيروت ١٩٦٠.
- ـــ ديوان طفولة نهد ، منشورات نـــزار قبـــاني بيروت. ط١٢ ، ١٩٧٣ .
- ديوان قـــالت لـــي السـمراء ، ط٣ ، دار العلـــم للملايين، بيروت ١٩٦٠.
- ديوان قصائد من نزار قباني ، ط٤ ، دار الآداب، بيروت١٩٦٠.
- ديوان يوميات امرأة لا مبالية ، ط١ ، منشـــورات

نزار قباني ، بيروت ١٩٦٨.
- قصتي مع الشعر ، منشـــورات نـــزار قبـــاني ، بيروت ١٩٨٢ .
- المرأة في شعري وفي حياتي ، منشورات نزار قباني ، بيروت ١٩٨١.

القسم الثاني :

نزار قباني والالتزام السياسي

موقف وقضية

أما قبل :

إن التعرف على حياة نزار قبـــاني الخاصـــة وظروف نشأته ومقابلتها بنمط إصداراتـــه الشـــعرية وتصريحاته وكتاباته النثرية ، تكشف عن تناقضـــات عديدة وتثير سحابة من الأسئلة التي يحار المرء فـــي الإجابة عليها . وقد لاحظنا أول هذه التناقضات ونحن نتناول قضية المرأة في حياته وشعره إذ وقفنا علـــى طبيعة حياة نزار ونشأته التـــي هيـــأت لـــه أســـباب الاقتراب من المرأة ، طفلة فصبية مراهقـــة فشـــابة مكتملة الأنوثة .. ، منذ دخل المدرسة المشتركة فـــي السابعة من عمره حتى تخرجه في الثامنة عشرة ، ثم في الجامعة وفي حياته العملية أثناء تنقله في العواصم العربية والأجنبية كموظـــف فـــي وزارة الخارجيـــة السورية .. وما وافق ذلك من اهتماماته بشئون المرأة ودعواه بأنه يدير معركة من أجل تحريرها من ربقـــة مجتمعها الشرقي وتسلط الرجل فيه ، ثم مقابلة ذلـــك

بغزله الحسي الذي يحولها فيه من آدمية تحترم ذاتها وأخلاقيات مجتمعها إلى عبدة لشهواتها تلهث وراء الرجال وتركع تحت أقدامهم كبائعة هوى وحبلى لا تستطيع أن تتحرر من عار خطيئتها ... (١) .

ومن أهم تلك التناقضات ما لاحظه الدارس من اعتزاز نزار بوطنية أبيه ، وافتخاره بنشأته في بيت من البيوت التي كانت تقود المقاومة ضد الانتداب الفرنسي على سورية (٢) ، ثم توجهه المبرر بتلك النشأة في ذلك المناخ الوطني إلى دراسة الحقوق والالتحاق بالعمل في السلك الدبلوماسي .. كل ذلك يتناقض مع عدم اكتراث نزار الشاعر بهموم الوطن وقضاياه السياسية ، حيث أصدر ديوانه الأول عام ١٩٤٤ " قالت لي السمراء " وهو في السنة النهائية

---

(١) انظر : بحثنا " نزار قباني والمرأة ـ قضية وموقف " ، القسم الأول من هذا الكتاب .

(٢) نزار قباني ، الأعمال النثرية الكاملة ، منشورات نزار قباني ، بيروت ١٩٩٧،ص ٢٠٩ ، ٢١١

في كليـــة الحقــوق حينمـــا كـــانت الاضطرابـــات والمظاهرات ضد الانتداب الفرنسي تعـــم ســـورية ، وأصدر ديوانه الثاني عام ١٩٤٧ " طفولة نهد " وهو على رأس عمله في السفارة السورية بالقاهرة حينمـــا كانت البلدان العربية تنـــاضل مـــن أجـــل الحريـــة والخروج من تحت نيـــر الاحتلال (١) . وهو فـــي هذين الديوانين وما تبعهما من إصدارات حتى الديوان العاشر تقريباً لا نراه يكاد يبدى اهتماماً بشئون بلـــده سورية أو البلدان العربية الأخرى وقضاياها القوميـــة والوطنية ، بـــل بقي سادراً فـــي غيـــه يلـــهث وراء المرأة وشئون جسدهـــا ، مدعيـــاً النضال في سبيـــل

---

(١) وقّعت بريطانيا اتفاقية الجلاء عن مصر في العام الذي عيـــن فيه نزار في السفارة السورية بمصـــر ١٩٤٥ ، وتحـــررت سورية من الانتداب الفرنسي عام ١٩٤٦ ، و حصل السودان عام ١٩٥٣ من بريطانيا على حق تقرير المصير ، والعـــراق عام ١٩٥٨ ، وتحررت الجزائر من الاحتلال الفرنسي عـــام ١٩٦٢.

حريتها .. وبقي هذا التناقض بين وظيفته الرسمية في وزارة الخارجية السورية التي يطل من خلالها على الهموم السياسية والقضايا الاجتماعية والاقتصادية للدول العربية ، ودواوينه وندواته الشعرية وما تنطوي عليه من مضامين تتصل بالمرأة وقضايا جسدها ، أو كما قال نزار بلسان حال المرأة (١):

خَلَوْتُ اليومَ ساعاتٍ إلى جسدي ..
أُفكّرُ في قضاياهُ
أليسَ لهُ هو الثاني قضاياهُ ؟

إنها قضية تحرير جسد المرأة ، وما يرفدها من مضامين تشعل هذا الجسد ثورة على العفة والشرف ، ومن تلك التناقضات أيضاً ما نراه من أشعار نزار وأحاديثه عن أسباب كتابة القصيدة السياسية وتحوله للاهتمام بشئون السياسة وهموم الوطن وربط ذلك كله

---

(١) نزار قباني ، الأعمال الشعرية الكاملة ، الجزء الأول ، منشورات نزار قباني ، ط١٣ ، بيروت ١٩٩٣م ، ص٥٩٠

بنكسة حزيران (١) :

أَنْعي لكُمْ ، يا أصدقائي ، اللُّغةَ القديمَةْ

والكُتُبَ القديمَهْ

أنْعى لكُمْ :

كلامَنَا المَثْقُوبَ كالأحذيةِ القديمَهْ

ومُفرداتِ العُهْر، والهجاءِ ، والشتيمَهْ

أنْعى لكُم ..

أنْعى لكُمْ ..

نهايةَ الفِكْرِ الذي قادَ إلى الهزيمَهْ .

* * *

مالِحَةٌ في فمنا القصائدْ

مالَحَةٌ ضفائرُ النِسّاءْ

والليلُ ، والأستارُ ، والمَقاعِدْ

مالحةٌ أمَامَنا الأشياءْ ..

---

(١) نزار قباني ، الأعمال السياسية الكاملة ، منشورات نزار قباني، ط٤ ، بيروت ١٩٨٦ ، ص٧١.

يا وَطَني الحزينْ
حَوَّلتني بلحظةٍ
من شاعرٍ يكتُبُ الحُبِ ًّ والحنينْ
لشاعرٍ يكتُبُ بالسِكّينْ ..

إنها هزيمة عام ١٩٦٧ التي أوقدت مراجل الثورة في نفس نزار وشعره ، وحركت ما عجزت قوات الانتداب الفرنسي على سورية عن تحريكه من قبل .. لقد انفجر الشعر السياسي على لسان نزار حمماً مقاتلة تؤكد وطنية نزار المخبوئة وصدق غيرته على الأمة العربية ومقدّراتها .. ، ولكن ألا يتناقض هذا الموقف الإيجابي مع ما وصل إليه نزار من سلبية مدمرة حين حول فوهة شعره من حماية المد الثوري ومقاتلة الأعداء إلى مقاتلة العرب أنفسهم وتفجير مقومات عروبتهم (١) :

---

(١) نزار قباني ، ديوان قصائد مغضوب عليها ، منشورات نزار قباني ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨٧ ، ص٧٣ ، وانظر

إيَّاكَ أن تقرأ حرفاً من كتابات العَرَبْ

فحربُهُمْ إشاعةٌ ..

وسيفُهُمْ خَشَبْ ..

وعشقهمْ خيانةٌ

ووعدهم كَذِبْ

.. ..

فليس في معاجم الأقوام ،

قومٌ اسْمُهُمْ عَرَبْ !!

إلى غير ذلك من التناقضات ؛ وما تثير من أسئلة حائرة تتعلق بوطنية نزار ومدى صدقه ، وحقيقة إغفاله للقضايا العربية قبل عام ١٩٦٧، وأسباب ثورته على الأمة العربية ، وحقيقة هذه الثورة ، وأهدافها .. وغير ذلك من الأسئلة التي يحاول هذا البحث الإجابة عليها ..

ص٩١، ٩٩، ١٣٢ ، ١٣٨ ، ١٤١ .

شعر نزار السياسي قبل النكسة :

قال نزار :" كانت معركة المقاومة ضد الانتداب الفرنسي تمتد من الأرياف السورية إلى المدن والأحياء الشعبية ، وكان حيّ الشاغور ، حيث كنا نسكن ، معقلاً من معاقل المقاومة ، وكان زعماء هذه الأحياء الدمشقية من تجار ، ومهنيين ، وأصحاب حوانيت ، يموّلون الحركة الوطنية ، ويقودونها من حوانيتهم ومنازلهم . أبي ، توفيق القباني ، كان واحداً من أولئك الرجال ، وبيتنا واحداً من تلك البيوت . ويا طالما جلست في باحة الدار الشرقية الفسيحة ، أستمع بعشق طفولي غامر ، إلى الزعماء السياسيين السوريين يقفون في إيوان منزلنا ، ويخطبون في ألوف الناس ، مطالبين بمقاومة الاحتلال الفرنسي ، ومحرضين على الثورة من أجل الحرية .. " (١) .

تلك كانت الصورة التي صور بها نزار البيئة

---

(١) الأعمال النثرية الكاملة ، ص٢٠٩ .

التي نشأ فيها ، وذلك كان افتخاره بوطنية أبيه . في تلك البيئة نشأ نزار ، وفي أجوائها السياسية نطق أول كلماته الشعرية ، ومن هنا ينشأ السؤال : ما مدى تأثر نزار بثوّار الحيّ الذي عاش في كنفه ؟ ثم ماذا ورث عن أبيه من صفات ثورية ؟

إن القول بعدم اكتراث نزار بالهموم الوطنية والقضايا السياسية منذ ميلاده كشاعر حتى عام النكسة هو قول عام قد يكون فيه بعض التعسف والظلم لنزار قبل البحث في بطون دواوينه والوقوف على حقيقة الأمر .

يشتمل ديوان نزار الأول " قالت لي السمراء " على ثمان وعشرين قصيدة لم يتعرض في أي منها لذكر ما كان يجري في سورية أو في باقي أرجاء الوطن العربي من مظاهرات أو ثورات ضد المحتل، مع أنه يقر بأن الشعر قد جاء في زمن الحرب (١).

---

(١) انظر الأعمال النثرية ، ص٢٤٧ .

ومع ذلك فقد ذكر نزار الوطن في غير موضع من ديوانه هذا ، ففي تقدمة شعره للقراء يقول في قصيدة بعنوان " ورقة إلى القارئ " (١) :

أنا لبلادي ... لنجماتها

لغيماتها .. للشذا .. للندى

سفحت قوارير لوني نهورا

على وطني الأخضر المفتدى

وفي قصيدة بعنوان " اسمها " يقول في وصف ذلك الاسم (٢) :

كقطيع من المواويل .. حطت

في ذرى موطني الأنيق الأنيق

اسمها .. ركضة النبيذ بأعصابي

وزحف السرور طي عروقي

---

(١) قالت لي السمراء ، منشورات نزار قباني ، ط.٣٣ ، بيروت ١٩٨٩ ، ص٢٧ .

(٢) السابق ، ص٦٩ .

وفي قصيدة بعنوان " حبيبة وشِيَتاء " يقول في وصـف حبه (١) :

أُحِبُّكِ .. في مُرَاهقةِ الدوالي
وفيما يُضْمِرُ الكَرْمُ الرضيعُ
وفي كرم الغمائم في بلادي
و في النَجْمات في وطني تضيعُ

وفي قصيدة بعنـوان " مَسَـاء " يخـاطب محبوبتـه قائلاً(٢) :

قِفي .. وانظري ما أَحَبَّ ذُرَانا
وأسخى أناملها الواهِبَهْ
مواويلُ تلمسُ على الأنْجُم الغاربَهْ

وفي قصيدة بعنوان " إلى مُصْطَافة " يقول (٣) :

لأغزل غَيم بلادي شريطاً

---

(١) السابق ، ص٨٤، ٨٥ .

(٢) السابق ، ص٨٨ .

(٣) السابق ، ١٠٣ .

يَلُفُّ جدائلكِ الراعِدَهْ

لأغسل رجليْكِ يا طفلتي

بماء ينابيعها البارده

تلك كانت المواضع الأربعة في الديوان كله التي ذكر فيها نزار الوطن ، إنها مواضع لا نستطيع معها أن نوافق مَنْ قال : " نلاحظ منذ الورقة الأولى أن الشاعر لم يغفل عن الخط الوطني " (١) ، حيث جاء ذكر بلاده أو وطنه مفرغاً من أيٍّ دلالة سياسة أو بُعد وطني ، وإن كانت قصيدته الأولى توهم بذلك إلاّ أنها كتقدمة تفقد قيمتها الدعائية مع الدخول في بحر أول قصيدة تليها ، واكتشاف أن شاعرنا مسكون بهموم أخرى غير هموم الوطن ، إنها هموم الجنس والشهوة التي يجسدها هذا الديوان .

---

(١) د. ماهر حسن فهمي ، نزار قباني و عمر بن أبي ربيعة (دراسة في فن الموازنة) ، طبعة دار نهضة مصر ، القاهرة ١٩٧١ ، ص١٨٨

وكان من المفترض والمنطقي أن يشتمل هذا الديوان على العديد من القصائد الوطنية التي تنسجم مع افتخار نزار بوطنية الحيّ الذي ولد فيه ونشأ ، وما شاهده فيه من ألوان مقاومة الاحتلال الفرنسي ، وكذلك مع افتخاره بوطنية أبيه الذي جعل بيته مقراً للأحرار ومصنعاً للثورة (١)، كان يمكن أن يترجم هذه النشأة في ذلك المناخ الثوري ـ كما صورها نزار ـ شعراً كما فعل غيره من الشعراء السوريين والعرب (٢) فيهتف مثلما هتف خير الدين الزركلي مثلاً (٣) :

الأهل أهلي ، والديارُ دياري

(١) انظر : الأعمال النثرية الكاملة ، ص ٢٠٩ ـ ٢١١ .

(٢) انظر : د. علي عباس علوان ، الشعر بين الحربين ، طبعة مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٠ ، ص٢٧٧ . ٢٩٢ .

(٣) سامي الكيالي ، الأدب العربي المعاصر في سورية ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر ١٩٦٨م ، ص٢٦٥ .

وشعار "وادي النيرين " شــــعاري
ما كان من ألـــــم بجلـــق نـــازل
واري الزناد ، فزنده بــــيَ واري
إن الدم المهراق فـــي جنباتــــــها
لدمي ، وإن شـــــفارها لشـــفاري

أما ديوانه الثاني " طفولة نهد " ، الذي فـــرغ نزار من تحبيره وكتابة مقدمته بعد تحرر سورية بعام واحد ، وبعد تخرج نزار من كلية الحقوق والتحاقــــه بالعمل السياسي بعامين (١)، فقد اشتمل علـــى ســبع وثلاثين قصيدة ؛ أطلق على إحداهن اسم " بــلادي " ، تحدث فيها عن خيرات بلاده مفتخراً بما تنعم بــه من

---

(١) فرغ نزار من كتابة مقدمة هذا الديوان عام ١٩٤٧ م و أرسـله للمطبعة .

انظر : نزار قباني ، طفولة نهد ، منشورات نزار قبـاني ، ط. بيروت ١٩٠٧٣ ، المقدمة .

أمـــن وأمان (١) :

جبالنا .. مروحةٌ
للشرق .. غرقي ، لينه
توزّع الخيرَ على الدنيا
ذُرانا المحسِنَهْ
يطيبُ للعصفور .. أن
يبني لدينا مسكنَهْ
ويغزل الصفصافُ
في حضن السواقي موطنَهْ
حدودُنا .. بالياسمين ..
والندى .. محصنة ...
ووردنا مُفـــتَـــحٌ
كالفِكَرِ الملوّنَهْ ..
وعندنا الصخورُ تهوَى
والدوالي مُدْمِنَهْ

---

(١) طفولة نهد ، ص٣٥ــ ٣٦ .

وإن غضبنا .. نزرعِ
الشمس .. سيوفاً مُؤمِنَهْ
بلادُنا كانت .. وكانتْ
بعد هذا الأزمِنَـــهْ

وهي إجمالاً قصيدة لا تختلف عـــن قصـــائد ديوانـــه السابق وباقي قصائد هذا الديوان ، فهي على صعيـــد اللغة مستلة من معجمـــه الغزلـــي ، وعلـــى صعيـــد الصورة لا تختلف عن ألبوم صوره ، وعلى صعيـــد المضمون لا تترجم أي موقف سياسي ، أو انشـــغال بأية قضية وطنية أو قومية . فهي قصيدة لا تعد دخيلة بين قصائد هذا الديوان الذي لم تخطـــر فيـــه همـــوم الوطن على بال نزار البتة ، حتى اســـتقلال ســـورية وجلاء القوات الفرنسية عنها صبيحة السابع عشر من إبريل عام ١٩٤٦ م ، الذي هلل له معظـــم شـــعراء سورية والوطن العربي (١) ، فإنه لم يحرك مشـــاعر

---

(١) انظر : الأدب العربي المعاصر في ســـورية ، ص٢٤ ، ٣٣ .

نزار الوطنية مثلما حرك مشاعر ابن حماة بدر الديـن الحامد الذي قال (١) :

هذا الـــتراب دم بـــالدمع ممـــتزج
تهبّ منـــه علـــى الأجيـــال أنســـام
يوم الجلاء هـــو الدنيـــا وزهرتـــها
لنـــا ابتـــهاج وللبـــاغين إرغـــــام
لقـــد ثأرنـــا وألقينـــا الســـواد وإن
مرّت على الليـــــث أيـــام وأعـــوام
فيا فرنسا ارجعي بالخزي صـــاغرة
ذكراك في صفحـــــة التـــاريخ آثـــام

كذلك قد لا يخفي على أحد أن هموم فلســطين بدأت قبل النكبة عام ١٩٤٨ بسنوات طويلـــة ، وقـــد استشرف الأدب العربي عامة والأدب الفلسطيني على

الشعر بين الحربين ، ص٢٧٧ـ ٢٩٢ .

(١) الأدب العربي في سورية ، ص٢٦ ، ٢٧ .

وجه الخصوص النكبة وحذر من ويلاتها ، ورصـــد خيوط المؤامرة التي اتضحت مراميها مـــع فـرض الانتداب البريطاني على فلسطين ، وواكب مجريـات الأحداث وشحذ الهمم ثورة بعد ثورة ، وشرح أسـباب المصائب التي حلت بالشعب الفلسـطيني ، وكشـف سوءات السماسرة ومحترفي السياسة وتجار الوطنيـة والشعارات الزائفة ..

نعم لقد صرخ الشـعراء ، وزمجـر الخطبـاء ، وارتفع أنين الكُتّاب تحت نير المرحلة وفـي أغـلال المؤامرة .. وكانت الغاية الأولي بين غايات أدب تلك المرحلة هي التنوير والتثوير على ما يحاك للشـعب الفلسطيني وأرضه، لقد كانت إبداعاتهم جميعاً نـلقوس خطر دائم القرع ينذر بضيـاع البـلاد والعبـاد .

وإذا كان المقام لا يتسـع إلا للتمثيـل فليـس أصدق من قول الشاعر محمد حسن علاء الدين الـذي قادته أحاسيسه المرهفة ووطنيته الصادقة إلى التحذير

من الأخطار المحدقة (١):

قلبـــي يحدثنـــي بيــومٍ مفجـــعٍ
يُدنِي العِــدَى ويبعــد الأصحابــا
يا قلبُ لا تنبـــس بـــأيٍّ فجيعـــةٍ
هل خففت شكوى تبثُ عذابــــا ؟

ومثله قول إبراهيم طوقان مستشرفاً النكبـــة قبـــل وقوعها بحوالي ثلاثة عشر عاماً (٢):

أمـــامك أيـــها العربـــيُ يـــومٌ
تشـــيب لهولـــهِ ســـودُ النواصـــي
وأنت كمـــا عـــهدتك ، لا تبـــالي
بغير مظاهر العـــبـــثِ الرّخـــاصِ
مصيرك بات يـــلـــمـــســـه الأداني

---

(١) إبراهيم عبد الستار ، شعراء فلسطين العربيـــة فـــي ثورتـــها التقدمية ، نادي الإخاءِ العربي ، حيفا (بدون) ، ص٢٠

(٢) ديوان إبراهيم طوقان ، الطبعة الأولى ، دار الشروق الجديد ، بيروت ١٩٥٥م، ص٨٧

وسار حديثـــــهُ بيــن الأقــاصيَ

فلا رَحــبُ القصور غـــداً ببــاقٍ

لســاكنها ولا ضيــق الخصـــاصِ

وآخــر ذو احتيــالٍ واقتنــــاصِ

لنا خصمان : ذو حـــولٍ وطــولٍ

وإذلالاً لنــــا ذاك التواصـــــــي

تواصــوا بينــهم فــأتى وبـــــالا

منــاهجُ للإبــــادة واضحــــاتٌ

وبالحســنى تنفـــذُ والرصــــاصِ

ومثله قول برهان الدين العبوشي قبل وقوع الكارثـــة في قصيدة بعنوان "الوطن المبيع" (١):

لهفي على الليث المـــهدد غابُــه

قد كانَ أجدرَ أن يمـــوتَ بغابِـــهِ

---

(١) د.كامل السوافيري ، الأدب العربي المعاصر في فلســـطين ، دار المعارف بمصر ١٩٧٩، ص١٥٤-١٥٥

والحرُّ يدْفَع عـــن حِمـــاهُ بسَـــيْفِهِ
فـــإذا تحطّـــمَ سَـــيْفُهُ فبنابِـــهِ
فالمجْدُ لا يُبْنَـــى بِغـــير جَمـــاجمٍ
والمجدُ تحْميهِ سُـــيوفُ غضابـــهِ
إن كان الاستْقلالُ يؤخَـــذُ عنـــوةً
والموتُ فيه فنحنُ مِـــن أربابـــهِ

فأين نزار قباني من هذا كله ؟ لقد صدر ديوانه الأول والثاني في تلك الفترة التي اشتعل فيها الأدب العربي ضد الاحتلال الإنجليزي والفرنسي للأقطار العربية ، وضد الإنجليز واليهود في فلسطين وممارستهم الدموية . لقد كان سادراً في غيه يحارب في خندق آخر من أجل قضية المرأة التي شكلت فكر ووجدان نزار في تلك المرحلة وأورثته عقدة نفسية لم يكن قد تحرر من قيودها بعد (١) .

---

(١) راجع : نزار قباني والمرأة موقف وقضية .

ويصدر الديوان الثالث " سَامْبَا " عام ١٩٤٩م ، بعد نكبة فلسطين التي أدمت قلوب الشعراء. فيخصصه لوصف جسد المرأة وإثارة أصواتها التي تتردد مع أغنية السامبا وأثناء تأدية رقصتها الشهيرة (١) :

تلك سامبَا ..
نَقْلَةٌ .. ثم .. انحناءهْ
خطواتٍ أربَعَا ..
أبداً .. تمضي معا ..
وتليها ..
لشِيْه غفْوَهْ
فيميل الراقصانِ
وتغيب الشفتانِ
عُبْرَ نَشْوَهْ
دَمْدِميها ..

---

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ، ١/١٨٨ ، ١٨٩ .

أنت .. هذي الأُغْنِيَهْ

بدماء المعصيَهْ

كتبوُها

ثم يصدر ديوانه الرابع " أنـــتِ لـــي " عـــام ١٩٥٠ فيشتمل على اثنتين وثلاثين قصيدة جميعها في تصوير جسد المرأة وأدوات زينته ومواطن إثارتـــه .. ففـــي الوقت الذي تتربع فيه قضية فلسطين فـــي ســـويداء قلوب شعراء ذلك الزمـــان (١) ، وتُخْـــرِج شـــعراء الرومانســـية الحالمـــة مـــن منتجعاتـــهم الشـــخصية

---

(١) راجع : ــ د. عبد الرحمن ياغي ، حيـــاة الأدب الفلســطيني الحديث ، الطبعة الثانية ، دار الآفاق الجديـــدة ، بيروت ١٩٨١م ، (تحذير الشعراء من وقـــوع النكبة) ص ٢٩٩-٣٢٥.

ــ د. كامل السوافيري ، الاتجاهات الفنية في الشـــعر الفلسطيني المعاصر ، الطبعة الأولـــى، الأنجلـــو المصرية ١٩٧٣م ، (شعر ما بعد النكبـــة) ص ٣٥٥-٣٧٣.

مذعورين، يحذرون من عواقب المرحلة ويستنهضون الهمة العربية للتصدي للمخططـــات الاســتعمارية ، فتنطلق صرخة عليّ محمود طه نشيداً قومياً (١) :

أخي جاوز الظالمون المدى

فحق الجهاد وحق الفـــدا

أنتركهم يغصبون العروبـــة

مجد الأبوة والســــــؤددا

وليسوا بغير صليل السيوف

يجيبون صوتاً لنا أو صـــدى

فجرد حسامك من غمـــــده

فليس له بعد أن يغمـــــــدا

أخي أيّها العـــربـــي الأبـــي

أرى اليوم موعدنا لا الغـــدا

أخي إن في القدس أختاً لنـــا

---

(١) د. كامل السوافيري ، الشعر العربي فـــي مأســاة فلســطين ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر ١٩٨٥ م ، ص٤٦٦

أعد لها الذابحون المـــــدى

أخي قم إلى قبلة المشرقيـــن

لنحمي الكنيسة والمسجـــدا

أخي قـــم إليها نشق الغمـــار

دمـــاً قـــانيـــاً ولظى مرعدا

فلسطين يحمي حماك الشباب

فجـــل الفدائـــــي والمفتـــدى

فلسطين تحميك منا الصـــدور

فأما الحياة وإمـــا الـــــردى

ويهب عمر أبو ريشة فيأخذ موقعه إلى جـــانب شعراء فلسطين ، يضمد الجراح ، ويبعث الأمل فـــي نفوس المنكوبين ، ويثير النخوة العربية (١) :

أمتي ، هل لـــك بيـــن الأمـــم

منـــبر للســـــيف أو للقلـــم

---

(١) ديوان عمر أبو ريشة ، طبعة دار العودة بـــيروت ، المجلـــد الأول ، ص٧.

ألإسـرائيل تعلـــو رايـــة
في حمى المهد وظل الحـرم !
كيف أغضيت على الذل ولــم
تنفضي عنـــك غبـار التـهم
أو لم كنت إذا البغي اعتـــدى
موجة من لـــهب أو مــن دم
فيم أقدمت ؟ وأحجمـــت ولــم
يشتفِ الثـــأر ولــم تنتقمــي
اسمعي نوح الحزانى واطربـي
وانظري مع اليتامى وابســمي
أيها الجندي يـــا كبــش الفــدا
يـــا شـــعاع الأمــل المبتســم
ما عرفت البخل بـــالروح إذا
طلبتها غصص المجد الظمـــي
بورك الجرح الـــذي تحملـــه
شـرفاً تحــت ظــلال العلــم

نجد نزار قباني ما زال في منأى عن الوطنية والقومية ، منشغلا بالمرأة وأدوات زينتها (١) :

ألوان أثوابها .. تجري بتفكيري

جري البيادر في ذهن العصافير

ألا سقي الله أياما بحجرتها

كأنهن .. أساطير الأساطير

أين الزمان ؟ وقد غصت خزانتها

بكل مستهتر الألوان معطور

فثم رافعة للنهد .. زاهية

إلى رداء ، بلون الوجد مسعور

لا يكترث بما يدور على الساحة العربية رغم أنه على صعيد الواقع الفعلي ، أكثر من غيره قربا من القضايا الوطنية والقومية ، في ظل عمله آنذاك في السلك الدبلوماسي . ويبدو لي أن تلك المرحلة بما فيها من

---

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ، ٢١٥/١ .

حروب وهزائم ونضالات لم تفلح بعد في تشـــكيل أيّ حس وطني لنزار . أما حديثـــه فـــي غـــير مناســـبة وموضع عما ورثه من عوامل الوطنية ؛ سواء مـــن الحيّ الذي ولد ونشأ فيه "حيّ الشاغور" ، أو عن أبيه الذي كان يصنع الثورة كما يزعم نزار (١) ، فـــهذا يحتاج إلى تمحيص وتأني للوقوف على مدى صحته ، وما هي أسباب عدم تشكل حسه الوطني حتـــى تلـــك الفترة من حياته .

أفترض في البداية أن نزار لـــم يبـــالغ فـــي تصوير البيئة الوطنية التي نشأ فيها ، وأنه شـــاهد " حيّ الشاغور " وهو يشـــتعل ثـــورة ضـــد المحتـــل الفرنسي، وشاهد الثوار وهم يجتمعون في بيت الأسرة لتخطيط أعمال المقاومة وتحريـــض النـــاس علـــى التصدي للمحتل كما شاهد مشاركة أبيه فـــي أعمـــال المقاومة ، كما شاهد جنود الاحتلال وهم يقودون أبـــاه

---

(١) انظر : الأعمال النثرية الكاملة ، ص٢٠٩ .

إلى معتقل تدمر الصحراوي (١) .. ولكن ما مـــدى تأثر نزار أو مشاركته في ذلك كله ؟

يقول نزار : " ويا طالما جلست في باحة الـدار الشرقية الفسيحة ، أستمع بعشق طفولي غامر ، إلـــى الزعماء السياسيين السوريين يقفون في إيوان منزلنا ، ويخطبون في ألوف النـــــاس ، مطـــالبين بمقاومـــة الاحتلال الفرنسي ، محرضين الشعب على الثورة من أجل الحريـــة . وفي بيتنا في حيّ "مئذنـــــة الشـــحم" كانـــت تعقد الاجتماعات السياســـية ضمـــن أبـــواب مغلقة، وكنا من وراء الأبواب نسترق الهمســـــات ولا نكـــــاد نفهم منهـــا شيئاً .." (٢) ، ويبرر لنا سـلبيته وعدم خروجه عن نطاق المشاهدة بصغر سنه وعـــدم وعيه حقيقة ما يدور حوله ، فيقـــول : " ولـــم تكـــن مخيلتي الصغيرة في تلك الأعوام من الثلاثينات قادرة

---

(١) انظر : السابق ، ص٢٠٩ ، ٢١٠ .

(٢) السابق ، ٢٠٩ .

على وعي الأشياء بوضوح"(١) .

نعم لقد كان عُمْرُ نـزار عـام ١٩٣٠ سـبع سنوات ، وهو كطفل آنذاك لا يستطيع أن يعي حقيقـة الأمر ، ولكن حينما دخل جنود الاحتلال منزل أسرته بالبنادق والحراب واقتادوا والده إلى المعتقل كان أكثر نضجاً حيث أدرك أن أباه كان يمتهن عملاً آخر غـير صناعة الحلويات .. كان يمتهن صناعة الحرية (٢).

ثم ماذا عنه وهو في مرحلة الطلب ، في أثناء دراسته في الكلية العلمية الوطنية ، التي دخلـها وهـو فـي السابعة من عمره وتخرج منها في الثامنة عشـرة ، التي تشكل وجدانه وفكره وتفتق الشعر علـى لسـانه فيها .. وماذا عن وجوده في كلية الحقوق بالجامعـة السورية .. لقد كانت المدارس والكليـات الجامعيـة مصنعاً كبيراً وهامـاً مـن مصـانع الثـورة ضـد

---

(١) السابق ، ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(٢) السابق ، ٢١٠ .

الفرنسيين، وقد " حاولوا أكثر من مرة أن يغلقوا كلية الحقوق التي اعتبروها بيئة خطرة ضد النفوذ الفرنسي، وكانوا يحسبون أكبر حساب لثورة الشباب الجامعيين وتكتلهم .. وكانوا يلقون منهم العناء وهم في المدارس الثانوية .. " (١) .

أين نزار من العمل الطلابي ، من ثورات الطلاب ومظاهراتهم في المدارس والكليات الجامعية، ألا يفترض أن يشارك زملاء الدراسة في اهتماماتهم الوطنية وتصديهم للمحتل .. لو كان فعل لحدّثنا عن نضالاته وبطولاته في ثنايا ما كتب من سيرته الذاتية، كما فعل في حديثه عن أبيه وأهل الحيّ الذي عاش فيه ، ولكان انعكس ذلك على صفحات شعره وطنية صادقة ونضالاً حقيقياً ، ولكن يبدو أن نزار لم يرث عن ذلك الحي الذي عاش فيه سوى رومانسيته الحالمة ، وجماله الخلاب " ضمن نطاق هذا الحزام

---

(١) الأدب العربي المعاصر في سورية ، ص١٩ .

الأخضر .. ولدت ، وحبـــوتُ ، ونطقــت كلمــاتي الأولى... كان اصطدامي بالجمــال قدراً يومياً .. هذا البيت الدمشقي الجميل استحوذ على كــلّ مشــاعري وأفقدني شهية الخروج إلى الزقاق.."(١). كما يبدو أنه لم يرث من أبيه إلا مــا يناســب تلــك الرومانســية الهروبية أو السلبية ، " كان أبي إذا مرّ به قوام امــرأة فارعة ، ينتفض كالعصفور ، وينكســر كلــوح مــن الزجاج .. " (٢) ، ولم يرث من أسرته سوى العشق، " أنا من أسرة تمتهن العشق .. جدي كــان هكــذا .. وأبي كان هكذا .. واخوتي كلهم يســقطون فــي أول عينين كبيرتين يرونــــهما .. يســقطون بســهولة .. ويخرجون من المــاء بسهولة.."(٣) وتبقــى ســلبيته تجاه نضالات المجتمع الدمشقي آنذاك مبررة أيضــاً

(١)الأعمال النثرية الكاملة ، ص٢١٥.

(٢) السابق ، ص٢٥٤ .

(٣) السابق ، ص٢٥٢ .

بحادثة انتحار أو مقتل أخته الكبرى وصال (١) ، التي لم تستطع الزواج من حبيبها ، ذلك المشهد الذي رآه وهو في الخامسة عشرة ، " صورة أختي وهي تموت من أجل الحبّ محفورة في لحمي "(٢) ، تلك الحادثة التي اعتبر نزار المجتمع مسئولاً عن وقوعها فحمّله دم القتيلة ، وراح ينتقم منه بدلاً من التصدي لأعدائه، " هل كانت كتاباتي عن الحب ، تعويضاً لما حُرِمَتْ منه أختي ، وانتقاماً لها من مجتمع يرفض الحب ، ويطارده بالفؤوس والبنادق أليّس)الاعتراف سيد الأدلة ؟ ، إن نزار يقرّ بسلبيته تجاه القضايا الوطنية والقومية ، إذ يعلن صراحة أنه يخوض معركة أخرى هي معركة الانتقام من المجتمع ، وأنه ما زال أسير العقدة النفسية التي

---

(١) انظر : نزار قباني و المرأة موقف وقضية ، ص١٠ .

(٢) الأعمال النثرية الكاملة ، ص٢٥٣ .

(٣) السابق ص ٢٥٤

نتجت عن مقتل أخته أمام ناظريه ، ومازالت شـــهوة الانتقام من المجتمع تأسره ، وأن نضالاته من أجـــل الحب ما هي إلا لون من ألوان ذلك الانتقـــام . أمـــا صور الانتقام فنراها مرة في هـــدم مقومـــات العفـــة والأخلاق (١) :

فضاجعي مَنْ شئتِ أن تضاجعي ..

ومارسي الحُبَّ .. على أرصفة الشوارعِ ..

ومرة أخرى في لوحاته الجنسية التي تدمر الفضيلـــة وتنتقم من الشرف (٢) :

وجذبت منها الجسم لم تنفر .. ولم تتكلم

مخمورةً مالتْ عليَّ بقدّها المتهدِّمِ

ومضت تعللني بهذا الطافر المكتوِّمِ

وتقول في سُكْرٍ ، معربدةً ، بأرشق مبسمِ

يا شاعري .. لم ألقَ في العشرينَ مَنْ لم يُفْطَمِ

---

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ، ٥٣٥/١ .

(٢) السابق ، ٧١/١ .

وثالثة في تحريض المرأة على سلطة الأب ، ورابعة في تصوير حياة بائعات الهوى ، وخامسة في تسويق مشهد من مشاهد السحاق .. (١) .

وهكذا نجد أنفسنا في غير حاجة إلى مناقشة فرضيات أخرى حول أسباب سلبية نزار وعدم مشاركته في نضالات شعبه . ولسنا في حاجة أيضاً إلى نفي صفة الوطنية عن "حيّ الشاغور" حيث نشأ نزار ، أو عن أبيه .. كما فعل "شاكر النابلسي" الذي افترض أن وصف نزار لبطولات أهل حيه ، وحديثه عن اجتماع القادة الوطنيين في منزل والده ، ومشاركة والده في صنع الثورة .. جميع هذه الأمور قد تكون من اختلاق نزار ليعطي سيرته الذاتية نكهة ثورية ونكهة وطنية ..(٢). إذ أن الأمر أصبح

---

(١) انظر : السابق ، ٥٩٢/١ ، ٨٠ ، ٣٥٢ ..

(٢) الضوء واللعبة ، الطبعة الأولى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٦ ، ص٩٢.

واضحاً ، وبات من المحتم علينـــا أن نتـــابع تدفـــق أشعاره لنرى متى يتخلص نزار من عقدته الخاصـــة ويلتفت للقضايا الوطنية والقومية في شعره .

لقد أصدر نزار ديوانه "قصائد" عام ١٩٥٦م ، ليشتمل على القصائد التي كتبها في أثناء وجوده فـــي لندن ــ من عام ٥٢ حتى عام ٥٥ ــ ، تلك المرحلـة التي يعتبرها نزار من المفاصل الهامة فـــي حياتـــه، يقول : " التجربة الإنجليزية وضعتنـــي فـــي إطـــار حضاري وإنساني كنت بـــأمسّ الحاجة إليه ... لقـــد منحتني لندن الطمأنينة الفكرية ، وغسلت أمطارهـــا أعشابي الشـــرقية العطشـــى ، وأعطتنـــي براريـــها المكشوفة واللانهائية الخضـــرة أول دروس الحريـــة وفي مدرسة الحرية هـــذه كتبـــت أفضـــل أعمـــالي الشعرية، وأكثرها ارتباطاً بالإنســـان، وهـــو كتـــاب قصائد ." (١).

(١) الأعمال النثرية الكاملة ، ص٢٨٨ .

إذن بماذا يختلف هذا الديوان عـن الدواويـن الأربعة سابقة الذكر ؟ ، وما هو شكل الحرية الـذي قصده نزار في حديثه السابق ؟

لقد اشتمل هذا الديوان علـى تسـع وثلاثيـن قصيدة ، لم نر اختلافاً في سبع وثلاثين منها عن نمط قصيدته في الدواوين السابقة ، فهي تراوح مـا بيـن غزل حسيّ ووصف جنسيّ ، وهي مـن عنواناتـها توحي بذلك ، فمنها :" القصيدة الشريرة " التـي قـد تكون ثمرة من ثمار أول دروس الحرية التي تعلمـها نزار في لندن ، إذ تضيف القصيدة الشـريرة نمطـاً جديداً لأنماط الوصف الجنسي فـي شـعره ، نمـط الشذوذ وممارسة السحاق بين فتاتين ، ومنها : قصيدة مشبوهة الشفتين ، وإلى ساذجة ، والجورب المقطوع، وطوق الياسمين ، ورسالة من سيدة حـاقدة ، وعنـد واحدة ، وحبلى ، وأوعية الصديد ، وإلى أجـيرة ... وقد ذكر نزار الوطن في السبع وثلاثين قصيدة فـي

أربعة مواضع من قصائده : عِنْدنَا ، وإلـــى عينيـن شماليتين ، والقميص الأبيـــض ، وعـودة التنـورة المزركشة ، دون أن يحمل هذا الذكـــر أيـة دلالــة سياسية أو مضمون وطني ، بل جاء متســـاوقاً مــع سياق تلك القصائد الغزلية (١) .

أما القصيدتان الأخريان ، فأولـــهما ميـــلاداً ، قصيدة " خبز وحشيش وقمر " التي أصدرها نزار في عام ١٩٥٤ قبل أن يضمها ديوان قصائد ، وقد أثارت معانيها حفيظة الشارع الإسلامي ، وكان موقف رجال الدين منها أشد ضراوة من موقفهم من ديوانه " قـالت لي السمراء " ومـــا ينطـوي عليــه مــن المعــاني الإباحية(٢) ، إذ تطاول نزار فيها على القيم الإسلامية

(١) انظر : الأعمال الشعرية الكاملة ، ١/٢٨٦ ، ٢٩٦ ، ٣١٥ .

(٢) راجع : الأعمال النثرية الكاملة ، ص٢٦٩ " أصـداء ديـوان قالت لي السمراء " ، وص٢٢١ "أصداء قصيدة خـبز وحشيش وقمر" ، وانظر : نزار قباني وعمر بن أبي ربيعة ، ص١٩٥.

واستهزأ بمعتقدات المسلمين ومقدّساتهم بمثل قوله(١):

في ليالي الشرق لمَّا ..

يبلغ البدرُ تمامه ..

يتعرَّى الشرقُ من كلِّ كرامهْ

ونضالِ ..

فالملايين التي تركض من غير نعال ..

والتي تؤمن في أربع زوجاتٍ

وفي يوم القيامَهْ ..

تتردىَّ جُثثاً تحت الضياء ..

في بلادي .. حيث يبكي الأغبياءْ

ويموتون بكاءْ ..

كلمَّا طالعهُمْ وجهُ الهلالِ

قد يكون هذا النص الثمرة الثانية من ثمار دروس الحرية التي تعلمها نزار في لندن ، وقد يكون التمرد على قيم الدين والسخرية من المعتقدات من أبجديات

---

(١) انظر النص : الأعمال الشعرية الكاملة ، ١/٣٦٤ ــ ٣٦٨ .

الحرية التي يقصدها نزار ، أليس في قوله : " خبز وحشيش وقمر .. كانت أوّل مواجهة بالسلاح الأبيض بيني وبين الخرافة .. وبين التاريخيين.."(١)، ما يؤكد على ذلك ؟! .

في ظني أن هذا النص يعد امتداداً لمعركة نزار مع المجتمع العربي ، معركة الانتقام من المجتمع المسئول عن مقتل أخته ، التي بعد موتها استجابة لبعض القيم والمعتقدات التي يؤمن بها ذلك المجتمع .

أما القصيدة الثانية " قصة راشيل شوار زنبرغ " التي كتبها نزار عام ١٩٥٥ ، فتعد في نظري أول دليل على وجود الحس القومي لدى نزار ، وهي تمثل المرة الأولى التي يحاول أن يتنفس فيها ذلك الحس ليثبت أنه موجود فعلاً ويترقب الفرصة للخروج لحيز الوجود .

---

(١) الأعمال النثرية الكاملة ، ص٢٢١ .

إن نكبة فلسطين ومشاهد مأساتها ما زالت تلح على وجدان الشاعر حتى خرجت في نهاية الأمـــر ، بعد سبع سنوات من وقوع الكارثة ، لتعلن بداية المــدّ السياسي في شعر نزار ، وتشير إلى بعض اهتمامـات نزار التي قد تشكل بعد ذلك موقفـــاً يمــيز القصيــدة السياسيـــة النزارية ، من ذلك مثلاً اهتمامه بـــالنشء الصغار ، بمستقبل الأمة (١) :

أكتُبُ للصغارْ ..

للعرب الصغار حيث يوجدونْ

لهُمْ ، على اختلاف اللـــون ..

والأعمار.. والعيونْ ..

أكتبُ للذين سوفَ يولدون ..

لهُمْ أنا أكتبُ .. للصغارْ

لأعين . . يركضُ في أحداقها النهار

ومن اهتماماته أيضاً ، انتقاد الكبار وتحميلهم مسئولية

---

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ، ٢٥٧/١ .

الهزيمة وضياع البلاد ، فهو يصرُ علـــى التعريــض بهم، منذ البداية ، ولا يراهم أهلاً لخــــوض معركـــة تحرير الأرض المسلوبة ، بل الصغار هم المســتقبل ، وعليهم ألا ينسوا معركتهم القادمة (١) :

وليذكر الصغارْ ..
حكاية الأرض التي ضيَّعها الكبارْ
.. ..
فليذكر الصغارُ حيث يوجدونْ
مَنْ ولُدوا منهمْ .. ومَنْ سيولدونْ
ما قيمةُ الترابْ ..
لأن في انتظارهم
معركة الترابْ ..

يبدو أن قدر القصيدة السياسية وميلادها في شعر نزار قد ارتبط ــ ولو ظاهرياً ــ بالمرأة أيضاَ ، فهو يبـــدأ تجربة كتابة القصيدة السياسية بعرض قصـــة غانيـــة

---

(١) السابق ، ١/٣٦٠ ، ٣٦٣ .

يهودية ألمانية تدعى " راشيل " ، كانت تديـــر بيتـــا للدعارة في ألمانيا قبــــل أن تــهاجر مـــع حثـــالات المجتمعات الغربية إلى فلسطين ، حيــــث أصبحــت مجندة تمارس الإرهاب مع جنود الاحتلال ضد العُزّل هناك ، وتبدأ مشاهد المأساة وسفك دمـــــاء الأبريـــاء وتشريدهم عن ديارهم (١) :

كان أبوها قذراً من أقذر اليهود ..

يُزوِّرُ النقود .

وهي تدير منزلاً للفحش في براغْ

يقصده الجنودْ

....

وأبحرت من شرق أوروبا مع الصباحْ

سفينة تلعنُها الرياحْ

وجهتها الجنوبْ

تغصُّ بالجرُذانِ والطاعون .. واليهود

---

(١) السابق ، ١/٣٥٨ ، ٣٥٩ .

كانوا خليطاً من سُقاطة الشعوبْ

من غرب بولندا ،

من النمسا ، من استمبول ، من براغْ

من آخر الأرض .. من السعير

جاءوا إلى موطننا الصغير

موطننا المسالم الصغير

فلطّخوا ترابنا

وأعدموا نساءنا

ويتموا أطفالنا

ثم يلح الشاعر في غير موضع من هذا النص على طلب الثأر لمقتل الأهل وما حل بهم من ألوان العذاب، ملتزماً برسالة الشعر السياسي الذي يُبقِي نافذة الأمل مفتوحة أمام الصغار ، ويقوم بدوره في التنوير من خلال شرح قصة المأساة ، والتثوير من خلال ما يقدم من مشاهدها (١) :

---

(١) الأعمال السياسية الكاملة ، ١/٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ .

قصة إرهابية مجندة

يدعونها راشيل
حلَّتْ محلَّ أُمّي المُمَدَّدةْ
في أرض بيارتنا الخضراء في الخليلْ
أميّ أنا الذبيحة المُستشهدهْ
أختي التي علَّقها اليهودُ في الأصيلْ
من شعرها الطويلْ
أختي أنا نُوارْ ..
أختي أنا الهتيكةُ الإزارْ ..
على ربي الرملة والجليلْ ..
أختي التي ما زال جرحُها الطليلْ
ما زال بانتظارْ ..
نهار ثأرٍ واحدٍ .. نهارِ ثارْ
على يد الصغارْ
جيلٍ فدائيٍ من الصغارْ
يعرفُ عن نُوارْ ..

وشعْرِها الطويلْ

وقبرِها الضائع في القفارْ

أكثر مما يعرف الكبارْ ..

تكمن أهمية هذا النص في كونه يمثل البداية الحقيقية لاهتمام نزار بالقضايا القومية ، هذه البداية التي نراها ناضحة تعبر عن صدق المشاعر ، وبراعة لغة القصيدة السياسية التي بدأت تتشكل في شعر نزار . كما تكمن في ارتباط هذه البداية بالقضايا القومية ، ففي الوقت الذي عجزت فيه القضايا الوطنية، من وقوع سوريا تحت الانتداب ، وثورات الأهل وأعمال المقاومة ومظاهرات طلاب المدارس والجامعات .. عن تحريك مشاعره ، وبعث الحس الوطني فيه ، استطاعت قضية فلسطين بعد سنوات سبع من وقوع الكارثة ، أن تحرك تلك المشاعر ليعلن ثورته المبطنة على القادة والزعماء ــ الكبار ــ ويرصد مشاهد المأساة فيثير مشاعر القُرّاء ويحرضهم ضد المحتل .

وتفسير ذلك ـ في ظني ـ يرجع إلى عدم تخلصه من الآثار النفسية التي ترتبت على مصرع أخته ، وأن مقولته : " .. ولكنني متأكد من أن مصرع أختي العاشقة ، كسر شيئاً في داخلي .. وترك على سطح بحيرة طفولتي أكثر من دائرة .. وأكثر من إشارة استفهام" (١) تدلل على عدم تسامح نزار مع المجتمع العربي السوري (٢)الذي يعد من وجهة نظر نزار هو المسئول الأول عن مصرع أخته كما سبق القول . لذلك رأيناه يستجيب ولو بعد حين للقضايا القومية رغم عدم استجابته من قبل للقضايا الوطنية .

وتستمر استجابة نزار للقضايا القومية بعد ذلك، فحينما يحدث العدوان الثلاثي على مصر عام

---

(١) الأعمال النثرية الكاملة ،

(٢) على الأقل حتى عام ١٩٧٠ تاريخ صدور كتاب نزار " قصتي مع الشعر : الذي اشتمل على تلك المقولة .

١٩٥٦م ، يتخذ نزار موقعه على جبهة القتال في السويس ثم في بورسعيد ، ليصور لنا معارك البطولة العربية المصرية ضد المعتدين الفرنسيين والإنجليز واليهود ، في قصيدة بعنوان " رسالة جندي في جبهة السويس " ، حيث نرى جبهة القتال ونتائج المعركة في أربع رسائل صغيرة يرسلها جندي مصري في جبهة القتال لأبيه ، يخبره فيها عن أيام الحرب الأربعة ، منذ اليوم الأول الذي توافدت فيه القوات المعادية على السويس حتى اليوم الرابع الذي انتهت فيه المعركة بهزيمة تلك القوات ، ففي يوم ٢٩/١٠/٥٦ يقول نزار على لسان ذلك الجندي (١) :

يا والدي !
هذي الحروف الثائِرَهْ
تأتي إليكَ من السويسْ
تأتي إليكَ من السويسِ الصابَرهْ

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ، ١/٤٥٤ .

إنّي أراها يا أبي ، من خندقي ،
سُفُنَ اللصوصْ
محشورةً عند المضيقْ
هل عادَ قُطّاعُ الطريقْ ؟
يتسلّقونَ جدارنَا ..
ويهدّدونَ بقاءَنا

وفي اليوم الرابع من أيام المعركة ، الموافق ١/١١/١٩٥٦م ، نقرأ الرسالة الرابعة التي تصور نتائج المعركة وهزيمة المحتل (١) :

ماتَ الجرادْ
أبتاهُ ، ماتتْ كلُّ أسراب الجَرَادْ
لم تبقَ سيدةٌ ، ولا طفلٌ ، ولا شيخ قعيدْ
في الريف ، في المدن الكبيرة ، في الصعيدْ
إلاّ وشاركَ ، يا أبي
في حَرْقِ أسرابِ الجرادْ

---

(١) السابق ، ١/٤٥٧ .

في سَحْقِه .. في ذَبْحهِ حتى الوريدْ
هذي الرسالةُ ، يا أبي ، من بور سعيدْ
من حيثُ تمتزج البطولةُ بالجراح وبالحديدْ
من مصنع الأبطال ، أكتب يا أبي
من بور سعيدْ ..

وتشتعل قرية عامر بن بولاد الجزائرية في الفاتح من نوفمبر عام ١٩٥٤م ثورة ضد الاحتلال الفرنسي، ثم تعم الثورة جميع الأراضي الجزائرية ، وتشارك النساء والأطفال والشيوخ في تلك الثورة، ويعلو اسم جميلة بوحيرد كبطلة شعبية ، ورمز من رموز الحرية ، ويتحدث العالم عن بطولات جميلة وما تعرضت له من ألوان القهر والتعذيب .. فتغلي مراجل العروبة في صدر نزار ويهتف مستنكراً ما تلقاه جميلة من صنوف العذاب (١) :

يا ربّي . هل تحتَ الكوكَبْ؟

---

(١) السابق ، ١/٤٥١

يوجدُ إنسانْ
يرضى أن يأكُلَ .. أنْ يشرَبْ
من لحم مُجَاهِدةٍ تُصْلَبْ
....
أُنثى .. كالشمعة مصلوبَةْ
القيد يعضُّ على القَدَمَيْنْ
وسجائرُ تُطْفَأُ في النهديْنْ
ودمٌ في الأنفِ .. وفي الشفتيْنْ
وجراحُ جميلةُ بوحَيْرَدْ
هيَ والتحريرُ على موعِدْ

لقد واكب نزار الثورة الجزائرية (١) من خلال نضالات جميلة بوحيرد ، معلناً اعتزازه بعروبته (٢):

---

(١) اشتعلت الثورة في الجزائر عام ١٩٥٤ واستمرت حتى أُرغمت فرنسا على توقيع معاهدة الجلاء عام ١٩٦١ ، وتم جلاء القوات الفرنسية عن جميع الأراضي الجزائرية عام ١٩٦٢ بعد أربع وثمانين سنة من الاحتلال .

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة ، ٤٥٣/١

الاسمُ : جميلةُ بوحَيْرَدْ
تاريخٌ .. ترويه بلادي
يحفظُهُ بعدي أولادي
تاريخُ امرأةٍ من وَطَني
جَلَدَتْ مقصلَةَ الجلّادِ ..

وتصدر قصيدة " الحب والبترول " عام ١٩٥٨ ؛ لتتوج أشعار نزار السياسية في مرحلة ما قبل النكسة(١) ، وهي قصيدة تنطوي على قدرٍ كبير من النقد اللاذع لبعض الأمراء العرب ومواقفهم السلبية من القضايا العربية الملحة ، كقضية فلسطين ، وهي قصيدة تشرح الكثير من أسباب هجوم نزار قباني

---

(١) جمع نزار قصائده الثلاثة : رسالة من جندي في جبهة السويس، وجميلة بوحيرد ، والحب والبترول في ديوانه " حبيبتي " الذي أصدره عام ١٩٦١م . ثم عاد وأدرجها مع القصيدتين السابقتين:"خبز وحشيش وقمر " و " قصة راشيل شوارزبلرغ " في مجموعته الموسومة بـ الأعمال السياسية الكاملة .

على بعض الزعامات العربية (١):

تمرَّغْ يا أميرَ النفط .. فوق وُحُولِ لذَّاتِكْ
كَمَمْسَحَةٍ .. تمرَّغْ في ضلالاتكْ
لكَ البترول .. فاعصُرْهُ على قَدَمَي خليلاتِكْ
كهوفُ الليل في باريسَ .. قد قَتَلَتْ مروءاتِكْ
على أقدامِ مومسةٍ هناكَ ..
دفنت ثاراتكْ
فبعتَ القدسَ .. بعْتَ اللهَ ..
بعْتَ رمادَ أمواتِكْ
كأنَّ حرابَ إسرائيلَ لم تُجْهِضْ شقيقاتِكْ
ولم تُهدمْ منازلنا .. ولم تُحْرقْ مصاحفنا
ولا راياتها ارتفعتْ على أشلاء راياتكْ
كأنَّ جميعَ مَنْ صُلبوا ..
على الأشجارِ .. في يافا .. وفي حيفا
وبئْرِ السَبْعِ .. ليسوا من سُلالاتِكْ

---

(١) الأعمال السياسية الكاملة ، ص ٦٦،٦٧.

تغُوصُ القدسُ في دمِها ..
وأنتَ صريعُ شَهْواتِكْ
تنامُ .. كأنما المأساة ليست بعضَ مأساتِكْ
مَتَى تفهمْ؟
متى يستيقظُ الإنسانُ في ذاتِكْ ؟

ورغم ما نلاحظه من صدق مشاعر نزار الوطنية ، وعمق إحساسه بمأساة فلسطين ، أو ثورة الجزائر ومعاناة جميلة بوحيرد .. ، إلا أن انشغاله بهاتين القضيتين لم يكن إلاّ انشغالاً مؤقتاً ، لا يتناسب وحجم المأساة، ولا يساير تطورها عبر الزمن ، كذلك لم يكن انشغال نزار بهموم الأمة العربية وتفاعله مع قضاياها المصيرية بالقدر المطلوب .. ، إذ لم تحرك مشاعره القومية ثورات العراق ، وحركات التحرر في ليبيا والمغرب العربي ، وفي اليمن والسودان .. ولم يزد عدد القصائد السياسية في دواوينه التي أصدرها في الفترة الممتدة ما بين عام ١٩٤٤ ، حيث

أصدر ديوانه الأول ، حتى نكسة حزيران عام ١٩٦٧م عن أربع قصائد ، أصدر الأولى " قصة راشيل شوار زنبرغ " عام ١٩٥٥م ، والثانية " رسالة جندي في جبهة السويس " عام ١٩٥٦ ، والثالثة " جميلة بوحيرد " عام ١٩٥٧م ، والأخيرة " الحب والبترول " عام ١٩٥٨م .

فكأني به قد خرج أربع مرات على مدى ثلاث وعشرين سنة من مخدع المرأة ، استنشق فيها هواء القومية العربية لبرهة قصيرة ثم عاد لمخدعه .

شعر نزار السياسي بعد النكسة :

اعتبر دارسو شعر نزار قصيدة " هوامش على دفتر النكسة " التي قالها في نكسة الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ بداية التحول في اهتماماته نحو القضايا القومية ، وجعلوها بداية التأريخ للقصيدة

السياسية في شعره (١) ، ورغم ما رأيناه في قصائده السياسية الأربعة التي قالها في الخمسينات ، من صدق في التعبير وقوة في الانتماء والالتزام ، إلا أن نزار نفسه يرى أن قصيدة هوامش هي بداية تحوله ، من ذلك قوله " لذا فإن تحولي بعد الخامس من حزيران ليس معجزة ولا نصف معجزة .. إنه ردّ فعل إنساني . عمل تدافع به الحياة عن نفسها " (٢) .

لعلّها صحوة نزار بعد تسع سنوات من كتابة آخر قصيدة من تلك القصائد السياسية الأربعة ، أو لعلّ إعلانات نزار الدعائية عن خروجه من غرفة نوم المرأة إلى الشارع السياسي ، وصدى قصيدة هوامش الإعلامي ، قد طمس معالم قصائده السياسية السابقة . لقد اتخذ أكثر من دارس من قول نزار في مطلع

---

(١) انظر مثلاً : ــ الضوء واللعبة ، ص٩٦ .
ــ نزار قباني وعمر بن أبي ربيعة ، ص٢٠٢ .
(٢) الأعمال النثرية الكاملة ، ص٤٢٢ .

قصيدة هوامش (١) :

أَنْعي لكُمْ ، يا أصدقائي ، اللغة القديمَهْ

والكُتُبَ القديمهْ

أُنْعي لكُمْ :

كلامَنَا المَثقُوبَ كالأحذية القديمَهْ .

ومُفْرداتِ العُهْرِ ، والهجاءِ ، والشتيمَهْ

أَنْعي لكُمْ ..

أَنْعي لكُمْ

نهايةَ الفكْرِ الذي قادَ إلى الهزيمةْ

مالحةٌ في فمنا القصائدْ

مالِحَةٌ ضفائرُ النِسَاءْ

والليلُ ، والأستارُ ، والمَقَاعِدْ

مالحةٌ أمَامَنا الأشياءْ ..

يا وطَني الحزينْ

---

(١) الأعمال السياسية الكاملة ، ص٧١ ــ ٧٣ .

حَوّلَتني بلحظةٍ
من شاعرٍ يكتُبُ شِعْرِ الحُبِّ والحنينْ
لشاعرٍ كَكتُبُ بالسِكّينْ ..

اتخذ من هذا شعر قرينة على إعلان التحول ، وإقراراً من نزار بأن عصر النساء قد انتهى ، وشعر الحب لم يعد مذاقه مستساغاً (١). وقد أكد نزار على هذا التحول وبرره بقوله :" لم يبق بعد حزيران للشاعر سوى حصان واحد يمتطيه هو الغضب .. ولكن أين يبدأ حدود هذا الغضب وأين ينتهي؟ صعبٌ عليَّ كثيراً أن أرسم حدودَ غضبي . فطالما أن هناك سنتمتراً واحداً من أرضي تحتلّه إسرائيل ، وتُذلّه ، وتقيم عليه مستعمراتها ، فإن غضبي بحرٌ لا ساحل له "(٢) .

---

(١) انظر : د.عبد المحسن طه بدر ، حول الأديب والواقع ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر ١٩٨١ ، ص١١٦ .

(٢) الأعمال النثرية الكاملة ، ص٤١٩ .

إنه يقرر أن هزيمة حزيران ١٩٦٧م قد صادرت منابع شعره في المرأة ، ولم تبق له إلا منبعاً واحداً يغترف منه شعراً سياسياً ، ويدلل على ذلك بتلاشي عاطفة الحب أمام جبروت مشاعر الغضب ، ثم يقرر أن هذه المشاعر لن تزول إلا بزوال الاحتلال عن الأراضي العربية .

قد يكون من والمألوف والمنطقي أن يشعر نزار بمرارة الهزيمة ، وأن يقرر أن تبعات الهزيمة لم تبق متسعاً لشعر الحب والغزل . ولكن ما مدى صدق هذه المقولة ؟ وكيف تنطبق على واقع نزار الشعري ؟

في ظني أن الحكم بصدق هذه المقولة من عدمه لا يحتمل أكثر من تأويلين ، أولهما يرتبط بالجو النفسي الذي قيلت فيه ، وبالتالي قد يكون نزار صادقاً مع نفسه في تلك اللحظة فقط ، حينما كانت تتملكه مشاعر الغضب تجاه هزيمة العرب أمام إسرائيل ،

وأنها رد فعل متسرع لا يقصد نزار تبعاته . وثانيهما أنها شعار تجاري ، كباقي شعارات نزار الدعائية التي اعتاد ترويج شعره من خلالها (١) .

والأدلة على صحة ما ذهبنا إليه كثيرة ، منها ما يتصل بمرحلة ما قبل النكسة ، ومنها ما جاء بعد مقولته السابقة ، بعد النكسة . أما مرحلة ما قبل النكسة فتعكس شواهدها العديدة عدم صدق تلك المقولة ، هذا إلا إذا كان احتلال معظم دول العالم العربي حتى منتصف القرن الحالي تقريباً لم يثر غضب نزار . ألم نر انصراف نزار عن كل الأحداث السياسية التي مر بها الوطن العربي ، وانغماسه في شعر الغزل الماجن منذ صدور ديوانه الأول عام ١٩٤٤ حتى نشر أول قصيدة سياسية "قصة راشيل شوار زنبرغ" عام ١٩٥٥م .

---

(١) راجع : العبارات الدعائية التي أحصاها شاكر النابلسي ، الضوء واللعبة ، ص١١٣ .

أما إذا كان غضب نـــزار مقرونـــاً بـــاحتلال اليهود للأراضي الفلسطينية في الخامس من حزيـــران عام ١٩٦٧ فمن حقنا أن نسأل أين كان غضب نـــزار حينما احتل اليهود القسم الأكبر مـــن فلســـطين عـــام ١٩٤٨م ، أين كان غضبه حيال المجاوز التي ارتكبها اليهود ضد الفلسطينيين ، وتشريدهم من ديارهم؟ هـــل كان حديثه عن الـــهجرة اليهوديـــة إلـــى فلســـطين ، وتصوير بعض مشاهد النكبة فـــي قصيـــدة " قصـــة راشيل شوار زنبرغ " تفريغاً لذلك الغضـــب ، وهـــل انتهى غضبه حينما انتقد سلوكيات بعض أمراء النفـــط الشاذة ؛ وتخاذلهم تجاه قضية فلسطين ؟

ثم كيف تستقيم العبارة السابقة مـــع قولـــه : " القضية الوحيدة التي ترافعـــتُ عنـــها ولا أزال هـــي قضية الجمال .. والبريء الوحيد الذي دافعت عنه هو الشعر . إذن جاءني الشعر في زمن الحرب"(١).

---

(١) الأعمال النثرية الكاملة ، ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ . وهو فـــي هـــذه

لعلّ نزار قد تخلص من عقدته الخاصة بفعل نكسة حزيران التي أماطت غشاوة ثقيلة عن عيون العرب ، ومنهم نزار ، واكتشفوا زيف الشعارات التي سبقت حزيران ، والتي أوهمت الجميع بأن تحرير فلسطين وإعادة الأهل إلى ديارهم مسألة بسيطة ، لذلك رأينا نزار المصدوم بزيف شعارات العرب يبرر الهزيمة بقوله (١) :

إذا خَسِرْنَا الحربَ ، لا غَرابَةْ
لأننا ندخلُها
بكلِّ ما يملِكهُ الشرْقيُّ من مواهب الخِطابَةْ
بالعَنْتَرِيَّاتِ التي ما قَتَلتْ ذُبابَةْ
لأنَّنا ندخلُها

المقولة يعني تفتق الشعر بشكل عام على لسانه ، حيث أصدر ديوانه الأول " قالت لي السمراء " عام ١٩٤٤ ، في زمن الحرب قبل أن تحصل سوريا على استقلالها وكذلك العديد من الدول العربية .

(١) الأعمال السياسية الكاملة ، ص٧٥ ، ٧٦ .

بمنطق الطَبْلَةِ والرَبَابَهْ

السِرُّ في مأساتنا
صراخُنا أضْخَمُ من أصواتنا
وسيفُنا ..
أطْولُ من قَامَاتِنَا

أما الذين تشككوا في صدق مبررات تحول نـــزار ، فيرون الأمر بطريقة أخرى ، منهم من يراه مجـــرد تجسيد لمرحلة تكتيكية لا تجبره على اتخـــاذ تغيـــير استراتيجي في مضمون كونه الشعري ، وأن نزار لن يتخلى عن عمله كحارس ليلي على باب المـــرأة ، و أنه لم يكن يعني ما يقول ، ولم تكن هذه اســتراتيجيته الجديدة .. (١) . ومنهم مَنْ تفـــهّم موقــف نــزار ، واعتبر تحوله وإدانته للعرب بعد النكسة صورة مــن محاولة التطهر التي أصابت العـــرب جميعــاً (٢) .

---

(١) الضوء واللعبة ، ص٤٧٢ ، ٤٧٣ .

(٢) حول الأديب والواقع ، ص١٢٠ ، ١٢١ .

وهناك من أرجع تحول نزار لتغيير واقع المرأة في المجتمع العربي واعتبر ما ردده نزار في الماضي عن تحرير المرأة لم يعد مطروحا ، كما اعتبر شعر نزار في الغزل قد فقد بريقه ، بعد أن استنزف نزار كلمات الحب والغرام .. لذلك كان الشعر السياسي مهرب نزار ، وملاذه الذي يبحث فيه عن استمرارية الذيوع والشهرة (١) .

ومهما كان الرأي في مبررات نزار ، فإن السؤال الذي يطرح نفسه بقوة هو : هل أصبح نزار شاعرا سياسيا ملتزما ؟ وهل سيستمر في هذا الاتجاه حتى تحرير الأراضي العربية من الاحتلال الإسرائيلي – كما قال – (٢) ؟

إن قصيدة " هوامش على دفتر النكسة " التي كانت أكثر جرأة وقوة في مواجهة سلبيات الواقع

---

(١) نزار قباني وعمر بن أبي ربيعة ، ص٢٠٠ – ٢٠٤ .

(٢) الأعمال النثرية الكاملة ، ص٤١٩ .

العربي من سابقاتها ، والتي أكدت خروج نزار عن مألوف شعره في المرأة ، كما أكدت وقوفه في وجه الفكر والسلوك العربي الذي أدى إلى الهزيمة .. قد حققت ما يسعى إليه نزار من تجديد دماء القصيدة بالشكل الذي يضمن له استمرارية الذيوع و الانتشار ، وقد تيقن نزار من ذلك حينما انتقل مستوى تعاطي هذه القصيدة من المستوى الشعبي إلى المستوى الرسمي ، حيث رأى السلطات العربية تتخذ سلسلة من التدابير لوقف زحفها (١) . وقد عبر عن ذلك بنشوة المنتصر وهو يصور انتشارها بين جميع شرائح المجتمع بقوله :"ولم يعد للموظفين في مكاتبهم الرسمية ، وللطلاب في جامعاتهم ، وللجنود في وحداتهم ، من عمل سوى طبع القصيدة بشكل مناشير، وتوزيعها على الباحثين عن الحقيقة ،

---

(١) انظر : السابق ، ص٤١١ ، ٤٣٤ .

والمعذبين في الأرض " (١) ، كما رأيناه مزهواً بها وهو يخاطب الزعيم القومي الراحل جمال عبد الناصر لكي يوقف الإجراءات التي تعتزم المخابرات المصرية اتخاذها ، ويبين أهمية ما جاء فيها من نقد للذات .. ، بمثل قوله : " أودعتها خلاصة ألمي وتمزقي ، وكشفت فيها عن مناطق الوجع في جسد أمتي العربية ، لاقتناعي أن ما انتهينا إليه لا يعالج بالتواري والهروب ، وإنما بالمواجهة الكاملة لعيوبنا وسيئاتنا ، وإذا كانت صرختي حادة وجارحة ، وأنا أعترف سلفاً بأنها كذلك ، فلأن الصرخة تكون بحجم الطعنة ، ولأن النزيف يكون بمساحة الجرح .. مَنْ منّا يا سيادة الرئيس لم يصرخ بعد ٥ حزيران ؟ مَنْ منّا لم يخدش السماء بأظافره ؟ مَنْ منا لم يكره نفسه وثيابه وظله على الأرض ؟ إن قصيدتي كانت محاولة لإعادة تقييم أنفسنا كما نحن، بعيداً عن التحجج

---

(١) السابق ، ص٤١٣ .

والمغالاة والانفعال .. (١) .

إذن لقد أدرك نزار طبيعة المرحلة بعـــد مـــا حققته قصيدته تلك من نجاح وشهرة ، وعرف مناطق الإثارة التي تهيج الوجع العربي ، فراح يعزف علـــى ذات الوتر ، ويحوّل نقده إلى جلّد يستهوي الجمـــاهير العربية المقهورة ، حيث أصدر فـــي العـــام ١٩٦٨ قصيدة "الممثلون" التي يتابع فيها انتقاده اللاذع للفكـــر العربي ، وسياسة القمع التي تمارسها بعض الأنظمـــة العربية (٢) :

حينَ يصيرُ الفِكْرُ في مدينةٍ
مُسَطَّحاً كَحَدْوَةِ الحِصَانْ
مُدوَّراً كَحَدْوَةِ الحِصَانْ
وتستطيعُ أيُّ بندقيةٍ يرفعُها جبانْ
أن تسحقَ الإنسانْ

---

(١) السابق ، ص ٤٣٥ ، ٤٣٦ .

(٢) الأعمال السياسية الكاملة ، ص١٠١ ، ١٠٢ .

حين تصير بلدة بأسرها

مصيدة .. والناس كالفئران

وتصبح الجرائد الموجهه

أوراق نعي تملأ الحيطان

يموت كل شيء ..

يموت كل شيء

ويصل نقده إلى حد الجلد ، أو فلنقل السادية في جلـــد وتعذيب الذات العربية في معظم أجزاء هذه القصيدة ، من ذلك قوله (١) :

حين تصير أمة بأسرها

ماشية تعلف في زريبة السلطان

يختنق الأطفال في أرحامهم

وتجهض النساء ..

وتسقط الشمس على ساحاتنا

مشنقة سوداء ..

---

(١) السابق ، ص١٠٩ .

وقبل أن يتهم نزار بالسادية (١) في جلده للذات العربية ، وتعرية الوجع العربي ، نراه يبرر أسلوبه هذا بأنه نوع من العلاج الفعال الذي يداوي به جراح الأمة العربية ، حيث يقول في رسالته للزعيم الراحل جمال عبد الناصر : " لم يكن بوسعي أن أقف أمام جسد أمتي المريض ، أعالجه بالأدعية والحجابات والضراعات . فالذي يحب أمته ، يا سيادة الرئيس ، يطهر جراحها بالكحول ، ويكوي – إذا لزم الأمر – المناطق المصابة بالنار " (٢) .

أما فلسطين فهي سبب الوجع العربي ، وهي التي أخرجت نزار من غرفة نوم المرأة غاضبا ثائرا ، لذلك لا ينسى جلد الذين أضاعوها ، دعاة الوطنية الزائفة (٣) :

---

(١) لقد اتهم نزار قباني بالنرجسية في شعره الغزلي ، والسادية في شعره السياسي .انظر الضوء واللعبة ، ص٤٩٠

(٢) الأعمال النثرية ، ص ٤٣٧ .

(٣) الأعمال السياسية الكاملة ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ .

كانت فلسطين لكم

دجاجة ، من بيضها الثمين تأكلون ..

كانت فلسطين لكم

قميص عثمان الذي به تتاجرون

طوبى لكم ..

على يديكم أصبحت حدودنا

من ورق

فألف تشكرون ..

على يديكم أصبحت بلادنا

امرأة مباحة

فألف تشكرون ..

حرب حزيران انتهت

فكل حرب بعدها ، ونحن طيبون

....

وصوت فيروز ،

من الفردوس يأتي ،

" نحن راجعون " ..

تغلغل اليهود في ثيابنا

و " نحن راجعون " .

صاروا على مترين من أبوابنا

و " نحن راجعون " ..

ناموا على فراشنا ..

و " نحن راجعون " ..

وكل ما نملك أن نقوله

" إنا إلى الله لراجعون " ..

ويستمر غضب نزار وثورته ، فيصدر في العام نفسه قصيدة " الاستجواب " التي يعري فيها الفكر العربي الذي أدى إلى الهزيمة ، ويفضح أصحاب الشعارات الزائفة ، ويعلن الحرب عليهم .

ثم يلتفت في العام نفسه ـ ١٩٦٨ م ـ لشعراء فلسطين ؛ فيصدر قصيدته " شعراء الأرض المحتلة " التي تفتح نافذة الأمل ليقف الصمود في مواجهة التردي ، والجرأة في مواجهة الخنوع ، ليجلد

الخانعين من شعراء العربيـــة ، ويشـــد أزر شـــعراء الأرض المحتلة ، ويبارك صمودهم (١) :

شعراء الأرض المحتله

يا أجمل طير يأتينا من ليل الأسر

يا حزنا شفاف العينين ،

نقيا مثل صلاة الفجر

نتعلم منكم ..

كيف يغني الغارق من أعماق البئر

نتعلم كيف يسير على قدميه القبر

نتعلم كيف يكون الشعر

فلدينا قد مات الشعراء .. ومات الشعر

....

الشاعر مخصي الكلمات ..

وما أشقى خصيان الفكر

شعراء الأرض المحتلة

---

(١) السابق ، ١٥٣ ، ١٥٤ .

يا ضوء الشمس الهارب من ثقب الأبواب

يا قرع الطبل القادم من أعماق الغاب

ويستمر غضب نزار وثورته ، و يحافظ على التزامه بما قرره آنفا في مثل قوله : "الشعر بعد حزيران، يكونه قطعة سلاح أولا يكون . يكون بندقية ، خندقا .. نعما .. أولا يكون"(١)، وقوله :" كل كلمة لا تأخذ في هذه المرحلة شكل البندقية ، تسقط في سلة المهملات ، وتصير علفا للحيوانات " (٢) .

ونتابع حركته الشعرية بعد الخامس من يونيو/ حزيران ١٩٦٧ ، فنجده قد هجر فعلا سريره الوثير في غرفة نوم المرأة ، واتخذ موقعه في خندق الشعر المقاوم ، ليبرهن على صدق التزامه بهموم الأمة وآمالها ، وعلى تحوله الفعلي من شاعر يكتب شعر الحب والحنين .. لشاعر يكتب بالسكين . ونلاحظ

---

(١) الأعمال النثرية الكاملة ، ٤٣٠ .

(٢) السابق ، ٤٣١ .

أنه في العامين ٦٨ ، ٦٩ قد قطع علاقتـــه بـــالمرأة نهائيا(١) ، حيث سكنت هموم فلسطين في وجدانـــه ، وتربعت على عرش شعره ، فخاض بها معركته ضد الانهزامية والتخاذل العربي ،وقام معها بدور عـــراب الثـــورة الـــذي يبشـــر بميـــلاد العمـــل العســـكري الفلسطيني(٢) :

جاءت إلينا (فتح)

كوردة جميلة من جرح ..

كنبع ماء بارد يروي صحاري ملح

....

مهما هم تأخروا .. فإنهم يأتون

من درب رام الله ، أو من جبل الزيتون

---

(١) أما ديوان " يوميات امرأة لا مبالية " الذي نشره نـــزار عـــام ١٩٦٨ م ، فهو حصاد مرحلة سابقة ، كتب قصائده في الصين عام ١٩٥٨ حينما كان يعمل هناك في السفارة السورية . انظر الأعمال النثرية الكاملة ة، ص٢٩٦ .

(٢) الأعمال السياسية الكاملة ، ص١٤١ ـــ ١٤٨ .

يأتون مثل المن والسلوى .. من السماء

....

يا ربنا :

نرفض أن نكون بعد اليوم طيبين

فالطيبون كلهم أنصاف ميتين

هم سرقوا بلادنا ..

هم قتلوا أولادنا

فاسمح لنا ، يا ربنا ،

نكون قاتلين

يا ثأرنا ..

نرفض أن نكون كالخراف وادعين

لقد بعث ميلاد حركة فتح الأمل في نفس نزار ، فتهدد اليهود وتوعدهم ، وفضح ممارستهم الوحشية وإرهابهم .. وكما تابع العمل الفدائي وشد من أزر الفدائيين ، كذلك التفت إلى حالة الوهن العربية ، ووقف على أسبابها ، بين طرق الخلاص ، وألهب بسياط نقده الزعامات العربية المتخاذلة ، وسياساتها

القمعية ضد شعوبها .. كل ذلك وغيره من المضامين الثورية نراه في شعر العامين ٦٨ ، ٦٩ كقصائده : فتح ، القدس ، منشورات فدائية ، إفادة في محكمة الشعر ..

أما العام ١٩٧٠م فقد شهد حنين نزار للمرأة ، وزياراته المتكررة لمخدعها الدافئ ، وارتداده عن تصريحاته العديدة التي رأيناها بعد نكسة حزيران حول التفرغ للشعر السياسي فقط ، إذ لم يعد شعاره : " كل كلمة لا تأخذ في هذه المرحلة شكل البندقية ، تسقط في سلة المهملات ، وتصير علفاً للحيوانات .. "(١) ملزماً له في كل الأوقات حتى يتحرر آخر شبر من الأراضي المحتلة (٢) ، بل إن للالتزام بهموم الوطن وقضاياه السياسية أوقات ،

---

(١) الأعمال النثرية الكاملة ، ص ٤٣١ .

(٢) هذا ما قرره نزار بعد النكسة مباشرة ، راجع السابق ، ص٤١٩ .

وللمرأة وقضايا جسدها أوقات أخرى ، وكما أن قوله: " كتاباتي عن المرأة لا تعني بشكل من الأشكال أنني وقعت معاهدة أبدية مع جسدها .. "(١) ، لا يعني التخلي عن المرأة وشئون جسدها ، كذلك فإن قوله فيما بعد : " لا أنوي أبداً توقيع معاهدة فكّ ارتباط معها "(٢) لا يعني التخلي عن الوطن وقضاياه .

ولكن الملفت للنظر أن إصدارات نزار عام ١٩٧٠ كانت أغزر من إصداراته في أي عام آخر، منذ ميلاده كشاعر حتى وفاته (٣) ، لقد أصدر في المرأة ثلاثة دواوين ، هي كتاب الحب ، وقصائد متوحشة ، ومئة رسالة حب ، وفي السياسة أصدر مطولته منشورات فدائية على جدران إسرائيل ، وثلاث قصائد في رثاء زعيم القومية العربية جمال

---

(١) السابق ، ص٤٢١ .

(٢) السابق ، ٥٣٧ .

(٣) توفي نزار يوم الخميس الموافق ٣٠ /١٩٩٨/٤

عبد الناصر . وفي النثر أصدر كتابه " قصتي مع الشعر " .

إنني أزعم أن هذه الإصدارات لم تكن جميعها من حصاد العام ١٩٧٠ فقط ، بل لعلها من حصاد أعوام أربعة ، منذ حزيران ٦٧ حتى ١٩٧٠ ، وأن نزار لم يستطع إصدارها قبل هذا التاريخ ، وذلك لما رأيناه من تصريحاته الملزمة عن طبيعة المرحلة بعد الهزيمة ، وعن متطلباتها ، وتشديده على ضرورة الالتزام السياسي ، وأن تصبح الكلمة لغماً وبندقية مصوبة في وجه العدو ، وكرباجاً يلهب ظهور أدعياء الوطنية الذين تسببوا في ضياع البلاد والعباد ، وراحوا يمارسون سياسة القهر والاضطهاد ضد الشعب ..(١).

لقد قرت بلابل نزار ، حيث استطاع خلال ثلاثة أعوام أن يحفر اسمه بقوة في سجل شعراء

---

(١) انظر : الأعمال النثرية الكاملة ، ص٤٢٦ ، ٤٣٤ .

المقاومة ، وأن يبرهن على أنه من شعراء الالتزام السياسي المخلصين .. وبالتالي لم يعد في حاجة إلى التقيد بحرفية شعاراته المتسرعة التي أطلقها بعد النكسة .. كما أنني لا أرى تعارضاً بين إصراره على عدم التخلي عن المرأة ، وقوله : " .. وماذا تغير من الواقع العربي حتى يستريح غضبي .. إن فلسطين لا تزال أرملة .."(١)، فدوحة الشعر واسعة ، مترامية الأطراف ، تتسع لكل الموضوعات .. ولا تشترط التخصص في لون واحد ، وأن تكون السياسة على حساب الغزل ، والأمر برمته يرجع في النهاية لطبيعة نزار الدعائية ، حيث يحتاج بين الفينة والأخرى إلى الفرقعات الإعلامية التي تضمن استمرارية الانتشار والشهرة .

إن تصريحاته السابقة ــ التي سنرى مثلها فيما بعد ١٩٧٠ ــ لا تعدو كونها أساليب جذب دعائية،

---

(١) السابق ، ٤٣٢ .

رأيناها قبل النكسة بكثير تواكب قصيدته " خبز وحشيش وقمر " (١) ، ورأيناها تواكب النكسة ، وسنراها في العام ٨٢ بعد اجتياح بيروت ، حيث يعلن حالة اليأس والتوقف عن كتابة القصيدة السياسية والعودة إلى شعر المرأة ، من ذلك قوله : " ألا يحق لي أن أستقيل من الكتابة السياسية .. وأتفرغ لصيد اللؤلؤ الأسود من عيني فاطمة ؟ لماذا لا أعود إلى جزيرة الحبّ التي حكمتها طوال ثلاثين عاماً بعدل وكفاءة وديمقراطية ..لم يعد عندي شهية لتصحيح هذا العالم ... ولم أعد متحمساً لمناقشة مصير المنطقة.. أو مصير العرب .. "(٢) ، ثم سنراه بعد ذلك يعود ويعلن حالة الملل من المرأة (٣) :

أريد الخروج من البئر حياً

---

(١) انظر: الأعمال النثرية الكاملة ، ص٢٢١ .

(٢) نزار قباني : والكلمات تعرف الغضب ، منشورات نزار قباني ، ط . الأولى ، بيروت ١٩٨٣ ، ٩٥/٢ .

(٣) نزار قباني ، سيبقى الحب سيدي ، ص١٤٩ .

أريد الخروج من القنّ

حيث الدجاجات

ليس يفرِّقن بين الصباح وبين المساء

أريد الخروج من القنّ

أن الدجاجات مزّقن ثوبي

وحللن لحمي

كرهتُ الإقامة في جوف هذي الزجاجة

كرهتُ كتابة شعري على جلد الغانيات

كرهت التسلق كل صباح وكل مساء

إلى قمة الحلمات

أريد انتشال القصيـــدة مـــن تحـــت أحذيـــة العابرات

أريد استعادة وجهي البريء كوجه الصلاة

أريد الرجوع إلى صدر أمي

أريد الحياة ..

ويقول في العام ١٩٨٥ : " هل مـــن الممكـــن

إكراماً لكل الأنبياء أن تخرجوني من هذه القـــــارورة الضيقة التي وضعتني فيها الصحافـــة العربيـــة : أي قارورة الحب والمرأة .. يا جماعـــة : أنا من زمـــان مستقيل من عملي كحارس ليليّ على باب المرأة .. أنا الآن أؤدي خدمتي العسكرية للوطن . وممنوع علـــيَّ أن أقابل حبيبتي إلا في أيام الإجازات .. " (١) .

لم يتوقف نزار حتى أخريات حياته عن ترديد هذه الشعارات ، ففي العام ١٩٩٤ نراه يقول(٢):

أُريدُ يا سَيِّدتي أن تعرفي
بأنَّني لم أصنَعِ النساءِ في مُخْتَبري
لكنّني ..
أنا الذي خَرَجْتُ من مُخْتَبرِ النِسَاءْ ..

ويعلن في العام نفسه يأسه من المرأة ومن السياســة ،

---

(١) الضوء واللعبة ، ص٤٧١ .

(٢) نزار قباني ، خمسون عاماً في مديح النساء ، منشورات نـزار قباني ، بيروت ١٩٩٤ ، ص٤٠ .

ويقرر أنه لم يعد هنالك مبرر للاستمرار في مناقشة قضايا المرأة أو القضايا السياسية (١) :

هذي بلادٌ ليس فيها امرأةٌ ..

هذي بلادٌ مالها قضيَّةْ !!

إن هذه الشعارات ، وغيرها الكثير ، لا تعدو كونها شعارات دعائية ، لا تعني توقف نزار عن الكتابة في المرأة ، أو في السياسة ، أو حلول إحداهما محلّ الأخرى ، وإن تناقضها ما بين الالتزام بالمراة أو بالسياسة يتصل بكونها شعارات دعائية يراعي نزار فيها الحالة العربية ، والظرف العام الذي تشهده المنطقة . ويبقى من الثابت ، بعد استقراء نتاج نزار الشعري ، أن الهم السياسي العربي ، والالتزام تجاه القضية الفلسطينية على وجه الخصوص ، قد تربع على عرش شعره بعد يونيو ١٩٦٧ إلى جانب المرأة التي لم يهجرها نزار في أي وقت ، ولم يحملها أية

---

(١) السابق ، ص٣٨ .

مدلولات تتصل بالسياسة ، أو يحولها إلى رمز يبعدها عن طبيعتها الأنثوية وملامح جسدها المعتادة في شعره .

شاعر الهجاء السياسي :

تعد قصيدة " الحب والبترول " التي أصدرها نزار عام ١٩٥٨م البداية الحقيقية لنشأة الهجاء السياسي في شعره ، إذ تعد المرة الأولى التي تسترعي سلبيات بعض العرب انتباه نزار ، وقد ربط ما انتقده من تلك السلبيات بنكبة فلسطين لكي يبدو نقده مبرراً ، وكان لسان حاله في تلك القصيدة يقول لا يمكن التغاضي عن أي سلوك عربي شائن بعد النكبة ، إن شعباً له قضية لا يجوز لأفراده أو زعاماتهم أن يلهثوا خلف نزواتهم ، وأن يبددوا

طاقاتهم ومقدرات شعوبهم .. (١) .

ثم يعود نزار بعد ذلك النص اليتيـــم لعالمـــه الخاص بالمرأة ، وقد اطمئن على واقع الأمة العربيـة السياسي ، أما فلسطين ونكبتها وتشريد أهلها فهي فـي ظني لم تعد تقض مضجعه ، فالأمة العربية جمعـــاء تلتف حول الشعب الفلسطيني ، وتستعد لإنهاء الوجود الإسرائيلي على الأراضـــي الفلسـطينية ، وإعـادة المشردين إلى ديارهم .. ونزار يبدو مطمئنـــاً إلـى الخطاب السياسي العربي ، والشعارات التي ترددهـا الإذاعات العربية التي تقلل من شأن اليهود ، وتطمئن العرب بأن طرد اليهود وحل القضيـــة لا يحتـاج إلا القليل من الوقت والجهد .

ولمّا هبت رياح النكسة وضاعت بقية فلسطين وأجزاء أخرى من العالم العربي ، اكتشف نـــزار ــ

---

(١) راجع حديثنا عن هذا النص في المبحث الخاص بشعر نـــزار السياسي قبل النكسة ، ص٢٢ .

كغيره من العرب ـــ زيف الشعار السياسي العربـــي ، فاشتعلت ثورته على العرب في قصيدة " هوامش على دفتر النكسة " التي فضح فيها تلك الشـــعارات وجلـــد أصحابها . ثم أتبعها بقصيدة " الممثلون التي كـــــانت نقداً للفكر العربي ، وللشعب العربي الخـــــانع تحـــت الذل، وللحكـــــام الذيـــن يمارســـون سياســـة القمـــع والاضطهاد ضد شـــعوبهم ، ثـــم أتبعـــها بقصيـــدة " الاستجواب " التي تعد تشـــــهيراً بالرجعيـــة العربيـــة والأساليب القمعية التي تمارســـها بعـــض الســـلطات العربية ضد الشعب .. ، ثم انـــــهمر ســـيل الـــهجاء السياسي على لسان نزار وأصبـــــح يقاســـم قصـــائده مضامينها ، لا يفوت فرصة تحتمل انتقاد أية ســـــلبية من السلبيات العربية ، فمثلاً حينما يريـــــد أن يمـــدح شعراء الأرض المحتلة ويشيد بصمودهم وشجاعتهم ، نراه يلتفت للكتاب العرب الخانعين ، فيلهبهم بســـــياط

نقده (١) :

مازلنا منذُ حزيرانٍ .. نحنُ الكُتَّابْ

نتمطّى فوق وسائِدنا ..

نلهو بالصّرْفِ وبالإعْرَابْ

يطأ الإرهابُ جماجمنَا

ونُقَبِّلُ أقدامَ الإرهابْ

....

شُعَرَاءَ الأرض المُحْتَلَّهْ

ما عاد لأعصابي أعصابْ

حُرُماتُ القُدْسِ قد انتُهِكتْ

وصلاحُ الدين من الأسْلابْ ..

ونُسَمِّي أنّفُسَنَا كُتَّابْ ؟؟

وحينما تكون ذكرى وفاة طه حسين يعرج الشاعر من خلالها على الوضع السياسي للأمة العربية ، فيلهب السلاطين الخانعين بسياط نقده ، ثم يلتفت إلى

---

(١) الأعمال السياسية الكاملة ، ١٥٦ ــ ١٥٧ .

بعض الزعامات النفطية الغارقـــة فـــي الشـــهوات ، فيقول(١) :.

آه يا مصرُ .. كم تعانينَ منهُمْ

والكبيرُ الكبيرُ .. دوماً يُعاني ..

لِمَنِ الأحمرُ المُراقُ بسيناءَ

يُحاكي شقائق النُّعْمَانِ ؟

أكَلَتْ مِصْرُ كِبْدَها .. وسواها

رافلٌ بالحرير والطَّيْلسَانِ

يا هَوَان الهوان .. هل أُصبح النفطُ

لدينا .. أغلى من الإنسانِ ؟

أيُّها الغارقونَ في نِعَمى المُرَبْرَباتِ الحِسَـــانِ

قد رَدَدْنَا جحافلَ الرُوم عنكُمْ

ورَدَدْنا .. كِسْرَى أنوشِيرْوانِ

فادَفعوا جِزْيَةَ السيوف عليكُمْ

---

(١) السابق ، ٤٨٢ ــ ٤٨٣ .

لا تعيشُ السُّيوفُ بالإحسانِ ..

أما القصائد التي تفردت في انتقاد السلبية العربية تجاه قضايا الأمة ، والتشهير بالممارسات المشينة .. فسيلها لم ينقطع منذ قصيدة " الحب والبترول " حتى وفاة نزار ، وقد اختلفت حدة نقده من قصيدة إلى أخرى حسب الموقف والخصلة التي ينتقدها ، فحينما تجئ ذكرى حزيران ـ مثلاً ـ بعد خمس سنوات من النكسة ، تهب رياح غضبه من جديد ، فيصدر تقريعاً للعرب الذين نسوا هزيمتهم وضياع بلادهم وانغمسوا في ملذات الدنيا (١) :

سوفَ نُنْسيكَ فلسطينَ ..
ونستأصِلُ من عينيكَ أشجارَ الدُمُوعْ
وسنُعطيكَ جوازاً عربيّاً
شُطِبَتْ منه إرشاداتُ الرجُوعْ ..

وترتفع حدة غضبه كلما رأى تناقض شعارات

---

(١) السابق ، ٢١٢ .

العرب وممارستهم ، وانسلاخهم من عروبتهم .. فيصدر قصيدته " حوار مع عربي أضاع فرسه " ، ثم " جريمة شرف أمام المحاكم العربية " التي يتحدث فيها عن اغتصاب فلسطين أمام أدعياء البطولة والكرامة (١) :

والعالمُ العربيٌّ ..
يضحكُ لليهود القادمينَ إليهِ ..
من تحت الأظافِرْ ..
....
الناطق الرسميٌّ يعلنُ في بلاغٍ لاحقٍ :
أنَّ اليهودَ تزوَّجوا زوجاتِنا ..
ومَضَوْا بهنَّ .. فبالرفاه وبالبنينْ ..

ثم يصدر قصيدة " الوصية " التي ينتقد فيها سلوك حكام الخليج العربي وممارستهم .. وانصرافهم عن قضايا الأمة العربية (٢) :

---

(١) السابق ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ .
(٢) السابق ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

أُخرُجْ إلى الشارع يا أميرنا ..
واقرأْ .. ولو صفيحةً يوميهْ ..
اقرأْ ..
عن السويس ، والأردُنِّ ، والجولان ،
والمدائن السَبِيَّهْ ..
عن الذينَ يعبرونَ النهرَ نحو الضفَّةِ الغربيَّهْ
هل يا طويل العُمْرِ .. في بلاطكُمْ
خريطةٌ صغيرةٌ .. للضفةِ الغربيَّة ؟

ويستمر نزار في فضح الشعارات الزائفة التي ترفعها بعض الأنظمة العربية ، فيصدر قصيدته "الخطاب" ، ويتبعها بقصيدة "بانتظار غُودُو" التي يناجي فيها البطل المأمول ، ليخلص الأمة العربية من براثن الجهل وقهر الحكام ثم قصيدة "مُورفين" التي تصور استخفاف بعض الحكام العرب بعقول شعوبهم(١):

(١) السابق ، ٢٩٨ .

اللفْظَةُ طابَةُ مطّاط
يقذفُها الحاكمُ من شُرْفَتِهِ للشارعْ
ووراءَ الطابة يجري الشَعْبُ
ويلْهَثُ كالكلبِ الجائعْ ..

وهكذا يستمر نزار حتى يعلن تعبه ويأسه من العرب ، يعلنها والعرب مجتمعون للاحتفال بمرور خمسة وثلاثين عاماً على تأسيس الجامعة العربية(١):

أنا يا صديقةُ مُتْعَبٌ بِعُروبتي
فهل العروبةُ لَعْنَةٌ وعِقابُ ؟
أَمْشي على وَرَقَ الخريطة خائفاً
فعلى الخريطة كلُّنا أغْرابُ ..
أتكلّمُ الفُصْحَى أمام عشيرتي
وأُعيدُ .. لكنْ ما هناك جوابُ
لولا العباءاتُ التي التفُّوا بها
ما كنتُ أحسَبُ أنهُمْ أعرابُ ..

---

(١) السابق ، ٦٤١ .

يتقاتلون على بقايا تَمْرَةٍ
فخناجرٌ مرفوعةٌ وحِرابُ
قُبُلاتُهُمْ عربيّةٌ .. من ذا رأى
فيما رأى ، قُبَلاً لها أنيابُ

ونتقدم قليلاً مع نزار لنصل إلى ديوان " قصائد مغضوب عليها " الذي ازدادت فيه حدة نزار ، واتسعت رقعة حربه ضد الاضطهاد والقمع العربي ، ضد الزعماء والقادة ، ضد الشعب ومقومات عروبته، وقد استعمل نزار جميع الأسلحة ، فقوله (١) :

تساقَطَ الفُرسانُ عن سُرُوجهمْ
وأُعْلِنَتْ دُوَيْلَةُ الخِصْيَانْ
واعتُقِلَ المؤذّنون في بيوتهم
وأُلغيَ الأذَانْ ..
جميعُهُمْ .. تضخَّمتْ أثداؤهُمْ
وأصبحوا نسوانْ

---

(١) قصائد مغضوب عليها ٢٥ ، ٢٦ .

ليس إلا صورة من صور الهزيمة ، ومشـــهداً مـــن مشاهد القمع الذي تشـــهده بـــلاد العـــرب ، بـــلاد قمعستان ، التي يعرِّفها بقوله (١) :

تلك التي تمتدُّ من شمال إفريقيا ..
إلى بلاد نفْطِستَانْ
تلك التي تمتدُّ من شواطئ القَهْر ،
إلى شواطئ القَتْلِ ،
إلى شواطئ السَحْلِ ، إلى شواطئ الأحزانْ ..
وسيفها يمتدُ بين مدخل الشِريْان و الشِريْانْ
ملوكُها يُقَرْفِصُونَ فوق رَقْبة الشُعوب بالوراثهْ

وهو أيضاً تبرير لهجمته القادمة على العرب الذيـــن تآمروا على تاريخ العروبة ، ومسخوا المـــأثور مـــن الصفات العربية الأصلية ، هذه الهجمة التـــي نتبيـــن بعض ملامحها في مثل قوله (٢) :

---

(١) السابق ، ص٣٠ .
(٢) السابق ، ص٧٣ .

يا أيُّها المُهْرُ الذي يصهلُ في بَرِيّة الغَضَبْ
إيَّاكَ أن تقرأ حرفاً من كتابات العَرَبْ
فحربُهُمْ إشاعةٌ ..
وسيفُهُمْ خَشَبْ
وعشقهمْ خيانةٌ
ووعْدُهُمْ كَذِبْ
إيَّاكَ أن تسمع حرفاً من خطابات العَرَبْ
فكلُّها أضغاثُ أحلامٍ ، ووَصْلاتُ طَرَبْ
لا تَسْتَغِثْ بمازنٍ ، وأوائلٍ ، أو تَغْلبٍ
فليس في معاجم الأقوام ،
قومٌ اسْمُهُمْ عَرَبْ

وقوله في قصيدة " أحمر .. أحمر .. أحمر " (١) :

لا تُسَافِرْ بجوازٍ عربيٍّ .. بين أحياء العَرَبْ
فهم من أجل قِرْشٍ يقتلُونَكْ ..
وهُم ـــ حين يجُوعُونَ مساءً ـــ يأكلونَكْ

---

(١) السابق ، ص١٤٠ ، ١٤١ .

لا تكُنْ ضيفاً على حاتم طَيّ

فهو كذَّابٌ.. ونَصَّابٌ ..

فلا تخْدَعْكَ آلافُ الجواري ..

وصناديق الذَهَبْ ..

يا صَديقي :

لا تَسِرْ وحْدَكَ ليلاً ..

بين أنياب العَرَبْ ..

أنتَ في بيتِكَ محدودُ الاقامَةْ ..

أنتَ في قومكَ مجهولَ النَسَبْ ..

يا صَديقي :

رَحِمَ اللهُ العَرَبْ

لقد اتضحت معالم ثورة نزار ، كما اتضح نهجه في الهجاء السياسي ، وباتت الأشعار اللاحقة ــ جميعاً ــ غرفاً على ذات المضامين التي رأيناها ، لا نرى جديداً حتى أخريات حياته .. حتى في أشعاره التي أعقبت اتفاق أوسلو ، لم تختلف نغمة نزار

الهجائية ، وإن اختلفت مبررات هجائه ، فهو يهجو العرب هذه المرة لأنهم وافقوا على شروط إسرائيل التي لا تحقق سلاماً ولا تعيد حقوقاً (١) :

جوّعوا أطفالنا خمسين عاماً

ورموا في آخر الصوم إلينا

بصلهْ ..

....

تركوا علبة سردين بأيدينا ..

تسمى (غزهْ) ..

عظمة يابسة تدعى (أريحا) ..

فندقاً يدعى فلسطين ..

بلا سقف ولا أعمدة ..

تركونا جسداً دون عظام ..

ويداً دون أصابع ..

قد تختلف المفردات والمعاني ، وقد تزداد حدة

---

(١) راجع : قصيدة المهرولون ، مجلة روزا اليوسف القاهرية ، العدد ٣٥١٣ ، ٩٥/١٠/٩ ، ص٣٦

نزار وتصل حد السباب والرجم ، ولكن تبقى مضامين هجائه السياسي هي ذات المضامين السابقة ، وتبقى ملامح شعره السياسي كما اتضحت في ديوان " قصائد مغضوب عليها " ، حتى حينما يقول في العام ١٩٩٠ : " في السنوات الأخيرة أصبحت أحفرُ الورق بأظافري حين أكتب ، أصبحتُ عصبيّاً وحارقاً وجارحاً .. نسيت مهنة الدبلوماسية التي زاولتها عشرين عاماً .. وقرّرتُ أن أكون مباشراً .. كطلقة مسدس .. " (١) ، لا يضيف جديداً ، لأن فعله قد سبق قراره ، وقراره هذا مسبوق بقرارات عديدة مشابهة (٢) ، وكذلك قوله في العام نفسه ــ ١٩٩٠ ــ (٣) :

وَطَنٌ بلا وَطَنٍ ..

---

(١) نزار قباني ، هل تسمعين صهيل أحزاني ، منشورات نزار قباني ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٩٢ ، ص٣٤ .

(٢) راجع ، الأعمال النثرية الكاملة ، ص٤٢٦ ــ ٤٣٤ .

(٣) هل تسمعين صهيل أحزاني ، ص١٩٠

وشعب دون ذاكرة

وأحرار يسيرهم إماء ..

إنا لنذبح كالنعاج ..

كأنما ..

دمنا ، لدى الحكام ، ماء ..

ما هو إلا تأكيد على ما سبق أن قرره في ديوانه " قصائد مغضوب عليها " .

مبررات سخط نزار على العرب :

لقد مر بنا في ثنايا هذا البحث العديد من أقوال نزار وأشعاره التي برر فيها نقده للعرب وهجومه الشرس عليهم ، وقد رأينا كيف بدأ نزار هجاءه السياسي بنقد بعض الأمراء والزعماء العرب الذين رأى انغماسهم في ملذاتهم الخاصة ، وعدم اكتراثهم بالقضايا الوطنية والقومية ، فانتقد تخاذلهم ، وفضح

سلبيات ممارستهم ، وحاول أن يبعث النخوة العربية فيهم (١) ، ورأينا كيف ازدادت حدة هجائه بعد النكسة واتسعت رقعته ليعم جميع مناحي الحياة العربية '، ويشمل جميع العرب .

ورغم تعدد تصريحات نزار وتنوع تبريراته ، فإنها تلتقي جميعاً عند الهزيمة واحتلال الأراضي العربية كعامل رئيس من عوامل هجاء نزار للعرب ، وكلمّا ازدادت إسرائيل في غطرستها ، وعجز العالم العربي عن التصدي لهجماتها .. كلما ازداد غضب نزار وتولدت لديه عوامل ومبررات جديدة للتمادي في هجائه السياسي .

فإن كان العامل الرئيس كما نراه في مثل قول نزار : " فلطالما أن هناك سنتمتراً واحداً من أرضي تحتله إسرائيل ، وتذله ، وتقيم عليه مستعمراتها ، فإن

---

(١) هذا ما نراه في قصيدتيه : قصة راشيل شوار زنبرغ ، والحب والبترول قبل عام ١٩٦٧ ، وفي أشعاره السياسية بعد النكسة.

غضبي بحرٌ لا ساحل له .. " (١) ، هو باعث شعر الهجاء السياسي النزاري ، فإن العوامل الثانوية ، التي تتولد مع طول أمد الاحتلال ، تصبح أكثر فاعلية في تفجير براكين غضبه ، لقد رأيناه يتغلغل في المجتمعات والأنظمة العربية ليبحث عن أسباب الضعف العربي ، ثم يرجع الأمر إلى انهيار الجبهة الداخلية ، ويحمل المسئولية عن ذلك إلى الحاكم والمحكوم الذي أتاح بخنوعه للحاكم أن يفعل ما يشاء(٢) .

وقد رأى نزار في ذلك مبرراً لتوسيع رقعة هجائه ليصل حد السخرية من العروبة ومسخ مقوماتها والتشكيك في أمجادها وتاريخها ، وقد رأينا ذلك في العديد من قصائده التي تذكر منها : أنا يا

---

(١) الأعمال النثرية الكاملة ، ص٤١٩ .

(٢) راجع : جهاد فاضل ، أسئلة الشعر ، الدار العربية للكتاب ، الطبعة الأولى ، بيروت (بدون) ، ص٣٦٣ .

صديقة متعب بعروبتي ، التأشـــيرة ، هجـم النفـط علينـــا، يوميات كلب مثقف ، تقرير سري جداً مـــن بلاد قمعستان ، عزف منفرد على الطبلـــة ، ســـميتك الجنوب ، متى يعلنون وفـــاة العـــرب ، أنـــا مـــع الإرهاب، ضد كل شئ .. وغيرهـــا الكثـــير ، تلــك القصائد التي تشتمل على مثل قوله (١) :

وَقَفتُ في الطابور ،

كان الناس يأكلون اللُّبَّ .. والتُرْمُسَ ..

كانوا يطرحون البولَ مثل الماشيةْ

من عهد فِرْعَونٍ إلى أيّامنا

هناك دوماً حاكمٌ بأمرِه

وأمةٌ تبولُ فوق نَفْسِها كالماشيَةْ ..

وقوله (٢) :

---

(١) قصائد مغضوب عليها ، ص٩١ .

(٢) جريدة القـــدس ، ٢٠ /١٩٩٧/٥م ، ص١٢ (قصيـــدة متـــى يعلنون وفاة العرب) .

أنا منذ خمسين عاماً

أراقب حال العرب

وهم يرعدون ولا يمطرون

وهم يدخلون الحروب ولا يخرجون

....

رأيت شعوباً نظن بأن رجال المباحث

أمر من الله مثل الصداع ومثل الزكام

ومثل الجدام ومثل الجراب

رأيت العروبة معروضة في مزاد الأثاث القديم

ولكني ما رأيت العرب

وقوله (١) :

لقد تعودنا على هواننا ..

ماذا من الإنسان يبقى ..

حين يعتاد على الهوان

....

---

(١) قصيدة " أنا مع الإرهاب " ، مجلة نضال الشعب ، العدد ١٨ ، تموز ١٩٩٧ ، ص٦٥ .

أبحث عن رجال آخر الزمان ..

فلا أرى في الليل إلا قططاً

مذعورة ..

تخشى على أرواحها

من سلطة الفئران !!

وغير ذلك الكثير من النماذج التي دفعت دارسي شعر نزار إلى اتهامه بالسادية في جلد الذات العربيـــــة، أو بالشعوبية في هجاء العرب وتدمير مقومات العروبـــة وأمجادها ..(١)

وأنا أرى أنه قبل إصدار الأحكام على نــــزار وشعره السياسي والهجائي ينبغي تمحيص الأمر مـــن جميع جوانبه ، للوقوف على حقيقة الأمر ، وتبين مـــا إذا كان نزار سادياً وشعوبيا أم لا؟

---

(١) انظر : – جهاد فاضل ، فتافيت شاعر ، ص٢٩ ، وكتابـــه : أسئلة الشعر ، ص٣٦٢

ـ شاكر النابلسي ، الضوء واللعبة ، ص٥١٢ .

في ظني إن نزار كان صادقاً مع نفسه في التعبير عن مشاعره القومية ، حين قرن غضبه وثورته على العرب منذ البداية باحتلال إسرائيل للأراضي العربية ، وجعل نقده اللاذع وهجاءه القاسي علاجاً للذات العربية ، وتطهيراً وبعثاً لها لكي تقوم بعد ذلك بواجبها تجاه الأمة ، فقوله : " إن جسد الأمة العربية لا يشفي بالوصفات العربية ، والعقاقير ، والسحر ، ولا يشفى بمقررات القمة ، وتوصيات جامعة الدول العربية .. فأمام كل هذه البثور والجراح المتقيحة ، لا يوجد طريقة أخرى سوى الكيّ . لذلك ، كان لابدّ من وضع الجماهير العربية تحت دوش بارد.. حتى تعود إلى وعيها السياسي "(١) .

يعد تبريراً أثبت الواقع الفعلي صدقه .. وإلا فلو كان نزار سادياً أو شعوبياً ، هدفه الجلد والتدمير ، لرأيناه يقصر شعره السياسي على الهجاء فقط ، ولما

---

(١) فتافيت شاعر ، ص٤٦ ، ٤٧ .

رأيناه على رأس شعراء المقاومة العرب والفلسطينيين، يكلأ النضال الفلسطيني ضد الاحتلال ، ويؤازر اللبنانيين في الجنوب ويشيد بمقاومتهم .. ولما رأيناه من قبل منتشيا حينما ردت مصر العدوان الثلاثي ، وحزينا يعيش أتراح الأمة العربية مع الثوار في الجزائر إلى جانب جميلة بوحيرد ، وباكيا فقيد القومية العربية جمال عبد الناصر في العديد من القصائد .. (١) . إن الشعوبي لا يهتم بالقضايا العربية بهذه الدرجة التي رأيناها عند نزار ، والتي لازمته حتى وفاته .

أما قول شاكر النابلسي وجهاد فاضل بخلو شعر نزار السياسي من سمات شعر المقاومة التي أهمها تخطي الآلام ، والتبشير بالمستقبل ، وإشاعة روح التفاؤل .. ، وحرصه على تكريس الانهزامية

---

(١) راجع : الأعمال السياسية الكاملة ، ص٢٥ ــ ٦٨ وكذلك ص٣٥٣ ــ ٣٩٠ .

العربية ، وإشاعة روح التشاؤم .. (١) ، فهذا أمـــــر يدحضه واقع شعر نزار السياسي ، والأدلة على ذلـك في شعر نزار أكثر من أن تحصى ، فمثـــــلا : فـــي قصيدته " فتح " نراه يتوعد اليهود ، ويبشر العــــرب بفجر الحرية (٢) :

يا فتح يا شاطئنا من بعد ما فقدنا ..

يا شمس نصف الليل لاحت ..

بعدما ضجرنا ..

يا رعشة الربيع فينا ..

بعدما يبسنا ..

حين قرأنا عنكم كل الذي قرأنا ..

خمسين قرنا بكم كبرنا ..

وارتفعت قاماتنا ..

---

(١) انظر : ـ الضوء واللعبة ، ص٥١٢ .

ـ قتافيت شاعر ، ص٢٣ .

(٢) الأعمال السياسية الكاملة ، ص١٤٣ .

وأزهرت حياتنا ..

من بعدما نشفنا

ثم يلتفت في قصيدة " القدس " إلى ما أصاب النفس العربية من يأس نتيجة للممارسة المحتل وصمت العرب ، فيداوي جراح النفس ، ويشيع روح الأمل ، ويبشر بالغد الذي تحرر فيه الأرض ، ويلتئم فيه الشمل(١) :

يا قدس .. يا مدينتي

يا قدس .. يا حبيبتي

غدا .. غدا .. سيزهر الليمون

وتفرح السنابل الخضراء والغصون

وتضحك العيون

وترجع الحمائم المهاجره

إلى السقوف الطاهره

ويرجع الأطفال يلعبون

---

(١) السابق ، ص١٦٤ .

ويلتقي الآباء والبنون

على رباك الزاهره

يا بلدي .. يا بلد السلام والزيتون ..

ومثل ذلك نراه في قصيدته منشورات فدائية على جدران إسرائيل ، التي نورد منها قوله (١) :

موعدنا حين يجئ المغيب

موعدنا القادم في تل أبيب

" نصر من الله ، وفتح قريب "

وهكذا لو تتبعنا شعره السياسي ، سنراه يفيض بروح الشعر المقاوم وسماته ، شعر يثير الحماس في نفوس المقهورين ، ويشد من أزرهم ويدعم صمودهم .. إن نزار لم يتخل عن هذه الروح حتى وفاته ، ألم نره يشعل حماس الفلسطينيين زمن الانتفاضة ، حيث فاضت قصائده ثورة وتأييدا وتبشيرا بنصر قريب ،

---

(١) السابق ، ١٨٣ .

ألا يتجلى ذلك في مثل قوله (١) :

أمطرنا ..

بطولة ، وشموخا

واغسلونا من قبحنا

اغسلونا من قبحنا

اغسلونا ..

لا تخافوا موسى

ولا سحر موسى ..

واستعدوا

لتقطفوا الزيتونا

إن هذا العصر اليهودي

وهم ..

سوف ينهار ..

لو ملكنا اليقينا ..

---

(١) نزار قباني ، ثلاثية أطفال الحجارة ، منشورات نزار قباني ، ط. الأولى بيروت ١٩٨٨ ، ص٣٨ .

إن موقف نزار من السلبيات العربية لا يعقــد له قصب السبق ، ولا يعد بدعــــــاً بيــن شــعراء العربية ، ولأن المقام لا يتسع لاســـتعراض تــاريخ الهجاء السياسي في الأدب العربي ، فإننا نكتفي بذكــر شاهدين من العصور الأدبية السابقة ، أولهما نــــأخذه من قول المتنبي(١) :

سادات كلِّ أُناسٍ مِــنْ نُفوسِــهِمِ
وَسادَةُ المُسلمين الأعْبُــدُ القــزَمُ
أغايَةُ الدِّينِ أنْ تُحْفُوا شَــوارِبَكُم
يا أُمَّةً ضَحِكَتْ مِن جَهْلِها الأُمَمُ

والثاني نراه في الشاعر ابن عنين الذي تعرض للعديد من الأقطار العربية بالهجاء ، حيث هجا أهل مدينــــة بخارى جميعاً ، واتهمهم بفساد العقيدة والبعــــد عــن

---

(١) ديوان المتنبي ، تحقيق د.عبد المنعم خفاجي وآخرون ، طبعــة مكتبة مصر ١٩٩٤، ص ٣٧٦

الدين (١)، وهجا سكان مدينة حلب جميعاً وأقذع في تناول أعراضهم (٢) ، وهجا الأيوبيين ودولتهم بألفاظ تنبو على الذوق العام ، نشير من ذلك كله إلى قصيدته التي مطلعها (٣) :

قد أصبحَ الرزقُ ما لَهُ سَبَبُ
في الناس إلاّ البغاء والكذبُ

أما في العصر الحديث فالشواهد كثيرة ، فمن الشعراء الفلسطينيين الذين انتقدوا الواقع العربي نذكر إبراهيم طوقان (٤) ، وراشد حسين (٥) ، ومحمود

---

(١) ديوان ابن عنين ، الطبعة الأولى ، دمشق ١٩٤٦ ، ص٢١١ .

(٢) السابق ، ص٢٣٠ .

(٣) السابق ، ص٢١٠ .

(٤) انظر : ديوان إبراهيم طوقان ، الطبعة الأولى ، دار الشروق . بيروت ١٩٥٥ م ، ص٥٧ .

(٥) انظر : راشد حسين ، الأعمال الشعرية ، الطبعة الأولى ، مركز إحياء التراث العربي ، الطيبة ١٩٩٠ ، ص٤٥٨

درويش (١) ، ومن العرب نذكر رشيد سليم الخوري(٢) ، وجبران خليل جبران ، ونورد قول جبران (٣) : " ماذا تريدون أن أفعل يا بني أمي ؟ أأهدل كالحمائم لأرضيكم أو أزمجر كالأسد لأرضي نفسي ؟ .. ماذا تطلبون مني يا بني أمي ، بل ماذا تطلبون من الحياة ، والحياة لم تعد تحسبكم من أبنائها ؟ .. أنا أكرهكم يا بني أمي ، لأنكم تكرهون المجد والعظمة . أنا أحتقركم لأنكم تحتقرون نفوسكم . أنا عدوكم لأنكم أعداء الله ، ولكنكم لا تعلمون !! " .

ثم إن نزار بعد ذلك كله يعترف بأنه يهاجم

---

(١) راجع : جهاد فاضل ، فتافيت شاعر ، ص٣٥ .

(٢) راجع : حسن جاد ، الأدب العربي في المهجر ، الطبعة الأولى، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص١٤٥

(٣) السابق ، ص١٤٢ ـ ١٤٤

عرب اليوم فقط (١) :

لا تنتظر من عرب اليوم سوى الكلام ..

لا تنتظر منهم سوى رسائل الغرام

يهاجمهم حبا لهم وحرصا عليهم ، ويسعى إلى إخراجهم من حالة الذهول والضياع ، إنه كما يقول : "وضع الجماهير العربية تحت دوش بارد حتى تعود إلى وعيها السياسي .."(٢) ، وهو يصر على عدم مهاجمته جميع العرب ، بل بعض عرب اليوم الذين طفت سلبياتهم على السطح ، يقول : "إنني ضد عرب هذه الأيام ، ولست ضد العرب بشكل مطلق .. فهناك فرق شاسع بين عرب النصوص .. والعرب خارج النصوص .. ولأنني عربي حقيقي ، فأنا ضد عرب الصفقات ، والكومسيونات ، وتهريب قطع غيار الطائرات ، وقطع غيار الأرتيستات .. إن العروبة

---

(١) قصائد مغضوب عليها ، ص٦٢ .

(٢) فتافيت شاعر ، ص٤٧ .

التي تقرفص في حديقة البيت الأبيض .. أو على أبواب (هاردوز) و (مارك اند سبنسر) .. أو تنقط راقصات شارع الهرم بأكداس الدولارات .. في حين يضطر سكان المخيمات المحاصرون في بيروت إلى أكل لحم القطط والفئران .. هذه العروبة ، هي التي قررت منذ زمن بعيد أن أطلق الرصاص عليها.." (١).

أما المرات القليلة التي أقذع فيها نزار في هجاء العرب جميعا ، فإنها في ظني تمثل حالة مؤقتة من حالات اليأس التي كان يمر بها كلما ازدادت أوضاع العرب ترديا .. ومع ذلك فهي لا تلغي حبه للعرب ، إن العرب كما يقول (٢) :

يا أصدقائي :
أنتم الشعر الحقيقي

---

(١) السابق ، ص٤٧ ، ٤٨ .
(٢) قصائد مغضوب عليها ، ص٤١ .

ولا يهم أن يضحك .. أو يعبس ..

أو أن يغضب السلطان ..

أنتم سلاطيني ..

ومنكم أستمد المجد والقوة ، والسلطان

إنه يعتز بعروبته ، وقد قرر ذلك في أكثر من مناسبة ، وقد أكد عليه في مثل قوله :"يبقى الجمهور العربي ثروتي القومية .. ولو أنني غامرت بهذا الرصيد العظيم .. أعلنت محكمة الشعر إفلاسي .. و ختمت قصائدي بالشمع الأحمر " (١) .

نعم لقد كان نزار ضمير الأمة العربية الحي ، وصوتها الواضح ، وصرختها المتواصلة .. عبر عن صميم المشاعر القومية ، وتابع الأحداث العربية عن كثب ، وارتبط بنبض الشارع العربي .

---

(١) جريدة القدس ، الجمعة ١/٥/١٩٩٨ ، ص١٢ .

المصادر والمراجع

- ابن عنين ، أبو المحاسن محمد بن نصر : ديوان ابن عنين ، الطبعة الأولى ، دمشق ١٩٤٦.
- أبو ريشه ، عمر : ديوان عمر أبو ريشة ، المجلد الأول ، طبعة دار العودة بيروت (بدون).
- بدر ، عبد المحسن طه بدر : حول الأديب والواقع ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر ١٩٨١.
- جاد ، حسن : الأدب العربي في المهجر ، الطبعة الأولى، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ١٩٦٥.
- حسين ، راشد : الأعمال الشعرية ، الطبعة الأولى ، مركز إحياء التراث العربي ، الطيبة ١٩٩٠.
- السوافيري ، كامل :
  - الأدب العربي المعاصر في فلسطين ، دار المعارف بمصر ١٩٧٩.
  - الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني المعاصر ، الطبعة الأولى، الأنجلو المصرية ١٩٧٣.

- الشعر العربي في مأساة فلسطين ، الطبعة الثانيـــة ، دار المعارف بمصر ١٩٨٥.

- طوقان ، إبراهيم : ديوان إبراهيم طوقـــان ، الطبعـــة الأولى ، دار الشروق الجديد ، بيروت ١٩٥٥.
- عبد الستار ، إبراهيم : شعراء فلسطين العربيـــة فـــي ثورتها التقدمية ، نادي الإخاء العربي ، حيفا (بدون).
- علوان ، علي عباس : الشعر بين الحربيـــن ، طبعـــة مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٠ .
- فاضل ، جهاد :

- أسئلة الشعر ، الدار العربية للكتاب ، الطبعة الأولى، بيروت (بدون) .
- قناديل شاعر ، دار الشروق ، الطبعـــة الأولـــى ، بيروت ١٩٨٩.

- فهمي ، ماهر حسن : نزار قباني وعمر بن أبي ربيعة (دراسة في فن الموازنة) ، طبعة دار نهضة مصـــر ، القاهرة ١٩٧١ .
- قباني ، نزار :

- الأعمال السياسية الكاملـــة ، منشـــورات نـــزار قباني، ط٤ ، بيروت ١٩٨٦.
- الأعمال الشعرية الكاملة ، الجزء الأول ، منشورات نزار قباني ، ط١٣ ، بيروت ١٩٩٣.
- الأعمال النثرية الكاملة ، منشورات نزار قبـــاني ، بيروت ١٩٩٧.
- ديوان ثلاثية أطفال الحجـــارة ، منشـــورات نـــزار قباني، ط. الأولى بيروت ١٩٨٨.
- ديوان خمسون عاماً في مديح النساء ، منشـــورات نزار قباني ، بيروت ١٩٩٤ .
- ديوان طفولة نهد ، منشورات نـــزار قبـــاني ، ط. بيروت ١٩٧٣ .
- ديوان قالت لي السمراء ، منشورات نزار قبـــاني ، ط:٣٣ ، بيروت ١٩٨٩ .
- ديوان قصائد مغضوب عليها ، منشـــورات نـــزار قباني ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨٧.
- والكلمات تعرف الغضب ، منشورات نزار قبـــاني ،

ط . الأولى ، بيروت ١٩٨٣

- ديوان هل تسمعين صهيل أحزاني ، منشورات نزار قباني ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٩٢.

- الكيالي ، سامي : الأدب العربي المعاصر في سورية، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر ١٩٦٨.
- المتنبي ، أبو الطيب أحمد بن الحسين : ديوان المتنبي، تحقيق د.عبد المنعم خفاجي وآخرون ، طبعة مكتبة مصر ١٩٩٤.
- النابلسي ، شاكر : الضوء واللعبة ، الطبعة الأولى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٦ .
- ياغي ، عبد الرحمن : حياة الأدب الفلسطيني الحديث، الطبعة الثانية ، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨١.

****

الفهرس

القسم الأول

نزار قباني والمرأة .. موقف وقضية

القسم الثاني

نزار قباني والالتزام السياسي .. موقف وقضية

